باطن الاثم
الخطر الاكبر في حياة المسلمين

بقلم الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد الله ولي كل توفيق ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد فأن الحقيقة ـ كما يقولون ـ مرة ! .

ولعل أهم أسباب مرارتها ، ما يـترتب على كشـفها وتجليتها من نقد موجه ، وتفنيد لبعض ما هو واقع من أمور الناس .

ولا يخفف من هذه المرارة ـ ولا أقول : يقضي عليها ــ إلا أن يتسم السـبيل إلى كشف الحقيقة بـإخلاص تام لها وتجرد كامل عن أي غرض من بين يديها ومن خلفها .

فـإذا تمسك البـاحث عن الحقيقة بهـذا السـبيل ، فقد أعـذر أمـام الله وعبـادة . ولا عليه أن يجد نفسه عاجزاً عن قلب طبائع الأشياء . وتحويل مرارة الدواء إلى سـكر حلو مـذاب . فـأن الحقـائق مهما كـانت ثقيلة أو مريرة في ظاهرها ،أجدى نفعاً للفرد والمجتمع من عذوبة التهرب منها أو من حلاوة المخاصـمة لها .

وحسب الباحث عذراً ـ إذا كان متمسكاً بهذا السبيل ـ أنه لا يلزم الناس من أعباء الحق إلا بمثل ما يلزم به نفسه ، ولا يـذيقهم من مـرارة ألا ما قد ذاقه من ذلك قبلهم ، وأنه لا يجعل من نفسه نبيـاً معصـوماً ينثر نقده بين الناس من فوق منبر العصمة ، ثم يمضي يـنزه ذاته من ذلك كله . بل هو يجعل من رقابته لذاته ونقده لأخطائه ، منطلقاً لتحذير الآخرين أن لا ينحرفوا انحرافه ولا يخطئوا كخطئه ، ومـادة نصـيحة ورشد يمتع بها أصحابه وإخوانه كما قد أكرمه الله بأن يمتع بها نفسه .

* * *

هل في هذا الكلام شائبة ضلال أو وهم ؟ ! .

لقد كان ذلك هو الأساس الذي أقمت عليه أبحاث هذا الكتاب . ولقد أردته ـ والله يشهد ـ نصيحة أسديها إلى نفسي قبل أن أتوجه بها إلى غيري .

ومع ذلك فقد ضـاق بعضـهم ذرعـاً بهـذه الأبحـاث ، لأنها تنحط بالنقد عليهم وتتجه بمحاولة التقـويم إلى واقعهم . وكان لهذا الضيق انعكاسات غريبة لا مجال لبيانها ولا فائدة من الحديث عنها .

ولقد قيل لي عن موقف هؤلاء الناس . فقلت ـ وهو الحق الذي لا أعلم بديلاً عنه ـ :

أما العصمة ، فلا أعلم بشراً يتصف بها بعد الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ! . .

وأما إباء النصيحة والاسـتعلاء عن قبولها ، فلا أعلم مسـلماً صـادق الإسـلام يرضى لنفسه أن تـتربع على مثل هذا العرش من الكبرياء ! . .

وأما الأســلوب والمنهج الأخلاقي في إنفاذها ، فليس أمامنا في ذلك ألا منهج النبــوة وأســلوب أفضل الورى محمد عليه الصلاة والسلام :

لقد كان ينصح ، ويعلم أصحابه أن الدين النصيحة . وكان ينتقد ، دون أن يذكر أسماء أو يجرح أشخاصـاً ، وإنما يقول : ما بال أقوام . . . ثم لا يبالي أي موقع وقع نقده هذا من نفوس الناس كلهم .

وأما احتمال الخطأ في بعض ما قد كتبت ، فقد أرهفت السمع له ، لعلي أتلقى تصويباً لخطأ ارتكبته ، أو تـذكيراً بقيد نسـيته ، أو تنبيهـاً لحقيقة فـاتني علمها . ولكـني لم أسـمع شـيئاً من ذلك كله ، اللهم الا ما يتعلق بــالبحث الــذي جعلت عنوانه " مشــكلتنا أخلاقية وليست فكرية " . فقد جــاءني من يقــول : بل مشكلتنا فكرية وليست أخلاقية !..

وجاءني من أوهموه بأنني أدعو الى أخلاق عارية عن كسوة الفكر والعلم ، وأعلن لهم أنهم ليسوا بحاجة الى فكر ولا علم !..

وأقول : انني لم أكتب كلاماً يدل على هذا أبداً .

والذي يستخرج المعاني من الألفاظ بمقياس اللغة ودلالتها لا يسـتخرج من كلامي في ذلك الفصل شـيئاً من هذا الباطل الذي لا يمكن أن أقوله .

وعلى كل فسأزيد هذا البحث وضوحاً في هذه الطبعة ان شاء الله ، وأعلق عليه بما يـرد عنه غاشـية أي وهم أو لبس.

واذاً ، فأنا الآن أعيد طبع هذا الكتاب وأنا أشد ما أكون رضاً وابتهاجاً بتوفيق الله في ذلك ، بل انني أعيد طبعة وأنا أكثر ما أكون شكراً لله أن جعله واسطة نفع واصلاح لكثـير من المسـلمين ، ولعلي كنت أزال أحوجهم الى هذا النفع والاصلاح .

أعيد طبعه ، وان أحداث المسلمين ومصائبهم المريرة ، لتزيدني كل يوم يقينا بأن المسلمين اليوم مشدودون الى الوراء تفرقاً وضيعة وهواناً ، بما ينطوون عليه من " باطن الاثم " أكثر مما يصطبغون به من ظاهر المعاصي والآثام.
أعيد طبعه ، وان مرارة الواقع الاسلامي يزيدني يقيناً كل يوم ، بأن مشكلة المسلمين هي النكبة التي أصابتهم في أخلاقهم ، وليست أي أزمة وهمية في ثقافتهم . هذا مع اليقين بأن المسلمين لا يحيون بدون ثقافة ولا علم ، كما لا يعيش المريض بدون شمس ولا هواء ، ولكن الشمس والهواء شيء والدواة الذي يصلح حال المريض شيء آخر .
أعيد طبعه ، وأنا أشهد الله ، أنني لا أبتغي بما قد كتبت حقداً أنفثه ، أو ضغينة أغذيها ، أو اشهاراً لحال أي فئة أو جماعة. كيف وان ذلك يمثل أسوأ ما يدخل في " باطن الاثم " مما لم أكتب هذه الأبحاث الا للتحذير منه وتطهير القلب من رياحه وآثاره . ولكني أرى مجتمعاً يسوده هذا البوباء الخطير (والمجتمع ليس الا أفراده) فأنا أحب أن ألفت نظره الى هذا الوباء ، في حديث لا تفسير له ان شاء الله الا أن يكون نصيحة لله ورسوله ولعامة المؤمنين .
أعيد طبعه ، وأنا أبسط يدي الى علام الغيوب ، في ضراعة واجفة ، أدعوه أن يحققني والمسلمين بما قد جعله أخص مزاياهم وصفاتهم :
(ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم).

مقدمة الطبعة الأولى

اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك . سبحانك اللهم لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك .
وصلى اللهم أفضل صلواتك على عبدك ونبيك محمد وعلى آله وأزواجه وصحبه كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم في العالمين انك حميد مجيد .
سألتني ياأخي المسلم في حرقة وألم :
المسلمون اليوم أكثر منهم في العهود القريبة السابقة ومظاهر سعيهم وأعمالهم الاسلامية أبرز منها في أي عهد مضى ، والمكتبات تزخر بالكتب الاسلامية المختلفة الحديثة كما لم تزخر بها في أي حين من قبل ، والناس يقبلون عليها اقبالاً رائعاً غير معهود ، ومع كل ذلك فان سعيهم في طريق المجتمع الاسلامي وحكمه يرتد عائداً الى الوراء ، ويسير مضطرداً الى الخلف !! . . فما سر هذا التناقض العجيب ، وكيف أمكن للمقدمات الطبيعية أن لا تثمر نتائجها ؟!..
ولقد قلت لك في الجواب : انهم أشتات متفرقون متدابرون ، والفرقة بلاء يفسد كل صالح من الأعمال ويقطع عنه أكثر نتائجه . فكيف اذا تحولت الفرقة الى تدابر ؟!..
وقلت لي : ففيم يلتقي أهل السوء على باطلهم ثم يسيرون في تعاون وتساند رائعين ، ولا يجتمع أهل الصلاح على حقهم ويظلون ويظلون متباعدين متدابرين ؟!!..
فأجبتك : ان أهل السوء أخلصوا في السعي الى باطلهم وعلموا أنهم لن يصلوا اليه الا باجتماع وتناصر ، ولم يكن لأحدهم من وراء ذلك الباطل مأرب خفي يناقضه ، فجمع بينهم السعي في الطريق ، وألف بينهم العلم بضرورة التعاون ، ومنعهم عن التدابر أنهم جميعاً صادقون في السعي الى باطلهم المشترك ، وان كانوا يتفاوتون في القصد الى مآرب أخرى من ورائه .
وأما أهل الصلاح فلم يخلصوا في السعي الى حقهم اخلاص أولئك الساعين الى باطلهم . اذ كان حق هؤلاء جاثماً في نهاية طريق من الضنك والحرمان ، وكان باطل أولئك قابعاً وسط هالة من مطامع النفس وأهوائها . فكان في أهل الصلاح من تحلى بالحق والدعوة اليه ظاهراً ، وراح يتلمس مطامع نفسه وأهواءها باطناً . وكان فيهم من تبنى الحق كلاماً يردده في المجالس أو خطباً يدبجها في المحافل ، فاذا كلفه الحق شيئاً آخر كالتنازل عن بعض حقوق نفسه أو تحمل بعض مشقات الحياة ، تخلى وابتعد . .
واذ كانت هذه الظاهرة فاشية فيما بينهم ، فقد زالت أو قلت الثقة ببعضهم . أصبح تلاقيهم وتعاونهم في طريق الدعوة الى الحق محصورين ضمن دائرة سطحية ضيقة . فهم لا يكادون يتجاوزونها الا وقد استيقظت فيما بينهم عوامل التفرق بل التدابر في كثر من الأحيان .
فأنا أذكر يا أخي المسلم أنك استغرقت ــ لدى جوابي هذا ــ في دوامة من الصمت الأليم ، ثم نهضت مستأذن ومضيت شارداً مفكراً .

وأما أنا ، فقد عد الى هذا الذي ذكرته لك ، فرأيت اني لم أفعل بذلك شيئاً سوى أني أسلمتك الى تيه مطبق من الهموم لا ملاذ منه ولا مفر ، ولقد كنت في هذا كمن نبه مريضاً إلى الأدواء الخطيرة المستحكمة في كيانه دون أن يشير بكلمة واحدة إلى العلاج المفيد أو المخفف من آلامه .
وأعوذ بالله من أن يكون كلامي تثبيطاً لنفس وإماتة للأمل ، فأكون بذلك قد زدت إلى الداء داء آخر شراً منه وأخطر .
ولقد أسلمني هذا الشعور إلى مثل عذاب من علم أنه قد زاد البلاء شدة ثم مضى متخلياً عنه ، وقد كان أجدر به إذاً أن لا يدنو إليه ولا يعالجه بشيء ، وإنه لفعل كثيرين غيري أيضاً من الناس .
ثم رأيت أنه لا ينجيني من هذا الشعور سوى أن أتبع ما ذكرته لك ، برسم الدواء . ولئن فاتني أن أحدثك به في المجلس الذي قمت عنه شارداً مغموماً فلن يفوتني أن ألحقه بك حيثما كنت في هذا الكتيب الصغير ، عسى أن يقع في يدك فينقلب همك إلى سعي وعمل إيجابي في سبيل التعريف بهذا الدواء والعمل على استعماله . وإنه لدواء مر المذاق ، ولكن الذي يخفف من مرارته إنما هو حلاوة الإيمان .
وما إظن إلا أننا جميعاً مؤمنون بالله إلهاً واحداً لا شريك له بيده الخير والملك ، وهو على كل شيء قدير .
والدواء الذي أريد أن ألفت نظرك إليه موصوف في كتاب الله تعالى . ومشروح في هدي نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم . إنه التخلي عن باطن الإثم .
وربما سألت : وظاهر الإثم ؟ ! . . اليس التخلي عنه أيضاً جزءاً من الدواء ؟ . .
والجواب : إنه جزء لا ينفصل عنه ، ولكن الناس جميعاً على علم به ، وربما كان الكثير منهم متمسكاً به .
فالتنبيه إليه أمر لا جديد فيه ولا حصيلة منه . أما الذي يظل أكثرهم في ذهول عنه فهو هذا الجزء الآخر وهو الذي إن أهمله المسلمون ذهبت جميع جهودهم وأعمالهم الإسلامية أنكاثاً ، وراحت في متاهات من الضيعة والفساد .
وتأتي خطورة هذا الجانب أو الجزء من الدواء ، بسبب كونه أمراً خفياً ليس للمسلمين من سبيل إلى تحسسه والرقابة عليه ، ولولا ذلك لأمكن أن تشيع الرقابة بينهم على هذا الجانب كرقابة بعضهم على بعض في أمر الصوم والصلاة وبقية الأحكام العملية الظاهرة .
ثم تأتي خطورته أيضاً من أن أكثر المسلمين اليوم لا يلتفتون إليه بتنبيه ولا تحذير ، ولا يهمهم أمره في بحث أو معالجة ، ولا يضعونه في ميزان أي حساب لدى السعي في سبيل إقامة المجتمع الإسلامي المنشود .
فمن أجل ذلك رأيت أن الجواب يحملني على وصل ما انقطع من الحديث بوصف هذا الدواء العظيم الذي طالما أهمله المسلمون وتركوه ضائعاً في زوايا النسيان ، رغم أنهم يرد دون الحديث عنه مرات كثيرة في كتاب الله تعالى وسنة نبيه .
أصف هذا الدواء لنفسي أولاً ، فأنا موقن أنني بأشد الحاجة إليه .
وأصفه لجميع الإخوة القراء ثانياً ، لأني مدرك ــ كما قلت لك ــ بأنه العلاج الذي لابد منه ولا يصلح أمر المسلمين إلا عليه .
وعلى الله التوكل ، ومنه التوفيق ، وإليه المآب .

الباطن والظاهر أو الديانة والقضاء

من المتفق عليه أن أوامر الشريعة الإسلامية تنقسم في جملتها إلى ما يتعلق بأقوال وأفعال ظاهرة كالصوم والصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والسعي في مصالح المسلمين ، وإلى ما يتعلق بالنفس والقلب كالإخلاص والتواضع والحب في الله والبغض فيه والخوف من وعيد الله تعالى والأمل في مثوبته ورضوانه .
وكذلك النواهي فهي تنقسم في جملتها أيضاً إلى ما يتعلق بظاهر الأقوال والأفعال ، كالنهي عن القتل بغير حق والسرقة والزنى والغيبة والنميمة ، وإلى ما يتعلق بأعماق النفس أو القلب كالنهي عن الكبر والعجب والرياء والحقد والضغائن والتعلق بزخارف الدنيا وأهواء النفوس .
ومن المتفق عليه لدى المسلمين جميعاً أن ما يتلبس به المسلم من الطاعات الظاهرة المتعلقة بالأقوال أو الأفعال ، لا يستقيم على حالة من القبول عند الله تعالى ما لم ينهض ويرتكز على تلك الطاعات الأخرى المتعلقة بطوايا النفس والقلب .
فإذا لم يتوفر الإخلاص لله في القلب لم تثمر الطاعات الظاهرة على اختلافها أي قرب ألي الله جل جلاله ، وإذا لم تتهذب النفس بالأخلاق الفاضلة التي أمر الله المسلم بأن ينسج منها ثوباً سابغاً خفياً لها ،لم يغنها أي غناء ما قد يلبسه صاحبها على مرأى من الناس من ثوب الصلاح والتعبد والتقوى .

والقلب الـذي سـيطرت عليه نـوازع الكـبر أو الضـغائن والأحقـاد أعجز من أن يمد الطاعـات والعبـادات الظاهرة بشريان العبودية لله تعالى . وإذا انقطعت روافد العبودية مما بين قلب المسلم وظـاهر طاعاته ، لم تعد فيها أي قـدرة على تقـريب صـاحبها إلى الله جل جلاله ، ولم يبق فيها أي وقاية تحجـزه عن مطارح الدنيا ومنزلقات الشياطين والأهواء وعاد شأنها كالثمار التي ألصقت إلصاقاً بأشـجار يابسة ، هل ينتظر بها إلا الذبول والفساد ؟.

وانقسام أحكام الشريعة الإسلامية إلى هـذين القسـمين ، من أهم ما نبه إليه كتـاب الله تعـالى بمختلف الطرق والأساليب .

فقد قال جل جلاله : " وذروا ظاهر الإثم وباطنه ، إن الذين يكسـبون الإثم سـيجزون بما كـانوا يقـترفون " . (الأنعام : 120) .

وقال أيضـاً :" قل تعـالوا أتل ما حـرم ربكم عليكم " إلى قوله :" ولا تقربـوا الفـواحش ما ظهر منها وما بطن " . (الأنعام : 151) .

وإليها التنبيه أيضاً في قوله جل جلاله : " فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبـادة ربه أحداً " إذ التنزة عن الشرك في العبادة ملاك الأحكام الباطنة كلها .

وارتكاز أحكام الشريعة كلها على تزكية القلب عن الفواحش الباطنة وتحليه بالفضائل والأخلاق الحميـدة ، من أوضح ما صرح به كل من كتاب الله تعالى وسنة رسوله .

يقول الله عز وجل : " قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ". (والشمس : 10)

ومعلوم أن الضمير في الآية عائد إلى النفس .

ويقـول النـبي صـلى الله عليه وآله وسـلم في الحـديث المتفق عليه " . . ألا وإن في الجسد مضـغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب ".

ويقول عليه الصلاة والسـلام فيما رواه مسـلم وابن ماجه وغـير هما :" إن الله لا ينظر إلى صـوركم ولا إلى أجسادكم ولكن ينظر إلى قلوبكم "[1][1].

***

وإذا ظهرت لك هـذه الحقيقة ــ وإنها لحقيقة واضـحة ما ينبغي أن تخفى على أي مسـلم ــ فـأن وسـيلة التعبير عنها قد تختلف ، والخطب في ذلك يسير .

فقد يعبر عنها بعضهم بالباطن والظاهر ، وقد يسميها بعضـهم بالديانة والقضـاء ، وقد يعـبر عنها آخـرون بالحقيقة والشريعة . .

وكلها تسميات صالحة ، إذا لو حظ المعنى الصحيح لها .

فإن الذي يصلي وافية الشرائط والأركان يعتبر في الظاهر وفي حكم القضاء وبمـوجب ظـاهر الشـريعة مؤدياً حق الله عليه . ولكنه إذا كان متلبساً مع ذلك برياء أو عجب أو عقيدة مكفرة ، فإنه لا يعتبر مؤدياً لحق الله تعالى في باطن الأمر وفي حكم الديانة وبالنظر إلى الحقيقة .

إذاً فهما ظاهر وباطن ، وديانة وقضاء ، وحقيقة وشريعة .

وقد يتفقـان في الحكم ، وذلك عنـدما تلتقي الشـرائط والأركـان الظـاهرة الـتي يضـبطها حكم القضـاء الـدنيوي ، بشـرائط وواجبـات باطنة لا تضـبطها إلا رقابة قيـوم السـماوات والأرض . فـذلك هو العمل المقبـول عند الله وفي حكم القضـاء الـدنيوي ، أو عنـدما لا تتـوفر شـرائط أحد الجـانبين ، وهو العمل المردود في الظاهر والباطن معاً .

وقد يختلفان في الحكم ، وذلك عندما لا يتوفر إلا الشرائط الظاهرة وحدها أو الباطنة وحدها ، وهو عمل باطل مردود في حقيقة الأمر ، ولا يغني عن صاحبه شيئاً أن تراه منمقاً بالمجملات والمكملات الظاهرة . وهو ممن ينطبق عليه قوله تعالى :" وقد منا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً " . (الفرقان : 23) .

وتدرك من هذا الذي ذكرناه أن كلا هذين الجانبين ـ مهما اختلفت التسمية ـ متلازما ، فلا يصلح ظـاهر بلا باطن ولا باطن بلا ظاهر ، وكذلك القول فيما قد تسمية حقيقة وشريعة ، أو قضاء وديانة .

---

[1][1] **ليس معنى هذا الحديث، كما يفهمه بعض الجهال او المتجاهلين ، ان من صلحت نيته وصفا قلبه لم يضره ترك الواجبات والعبادات العملية، فان من صلح قلبه وصفت سريرته لا يمكن ان يكون مقصراً في حقوق الله تعالى، وانما معنى الحديث ان التلبس بصور الطاعات والعبادات دون ان يكون لها جذور من صلاح القلب واخلاصه لا يقرب العبد الى الله شيئاً لان الله تعالى كما يرى ظاهر اعمالك يرى ما قد استقر في اعماق نفسك.**

وفي بيـــان ذلك يقـــول العز بن عبد الســـلام رحمه الله : " وليست الحقيقة خارجة عن الشـــريعة ، بل الشريعة طافحة بإصلاح القلوب بالمعارف والأحوال والعزم والنيات ، وغـير ذلك مما ذكرنـاه من أعمـال القلوب . فمعرفة أحكام الظاهر معرفة لجل الشرع ، ومعرفة أحكام البواطن معرفة لدق الشريعة ، ولا ينكر شيئاً منها إلا كافر أو فاجر "[2][2].

أما القول بأن الباطن أو الحقيقة عبارة عن شريعة أخرى يدركها العقل برياضـات معينة أو بـإحراز قـرب الله تعالى، وأنها تنسخ ظاهر الشرائع والأحكام في حقه ، إذ يحل الباطن عنده في الاعتبار محل الظاهر ـ فهو من أخطر مظاهر الزندقة ولإباحية المجرمة .

وما فاه بهذا الباطل إلا زنادقة تسللوا إلى الإسلام وتظاهروا بالتمسك به ، ابتغاء الكيد له والتلـبيس على حقائقه ، أظهـروا التصـوف حينـاً ، ولبسـوا لبـاس التشـيع حينـاً آخر ، وما هم من هـذا القبيل ولا ذاك ، ولكنهم سلكوا إلى حرب الإسلام وأهله أمكر سبيل .

وقد نقل الشيخ مصطفى العروسي في حاشيته على الرسالة القشـيرية عن الإمـام الغـزالي قوله :" لو زعم زاعم أن بينه وبين الله حالة أسقطت عنه الصلاة وأحلت له شرب الخمر وأكل مال السلطان ، كما زعمه بعض جهلة الصـــوفية ، فلا شك في وجـــوب قتله ، بل قتل مثله أفضل من قتل مئة كـــافر ، لأن ضرره أكثر " .

وقد سئل الجنيد رضي الله عنه عن حال هؤلاء فقال : الذي يسرق والذي يزني من العصـاة أحسن حـالاً منهم[3][3].

ويقول العز بن عبد السلام : " وقد يتشـبه بـالقوم من ليس منهم ولا يقـاربهم في شـيء من الصـفات ، وهم شر من قطاع الطرق ، لأنهم يقطعون طريق الـذاهبين إلى الله تعـالى ، وقد اعتمـدوا على كلمـات قبيحـات يطلقونها على الله ويسـيئون الأدب على الأنبيـاء والرسل وأتبـاع الأنبيـاء من العلمـاء الأتقيـاء وينهـون من صـحبهم عن السـماع من الفقهـاء ، لعلمهم بـأن الفقهـاء ينهـون عن صـحبتهم وعن سـلوك طريقهم "[4][4] .

ولما وقف بعض الناس على هذا التأويل الباطل للظاهر والباطن ، أو الحقيقة والشريعة ، دون أن يتنبهوا الى المعنى الحقيقي الذي لا ينبغي للمؤمن انكاره وجهله ـ لم يسعهم الا أن ينكـروا الأمر جملة واحـدة ، فنفوا أن يكون في الدين ظاهر وباطن ، أو حقيقة وشريعة ، أو ديانة وقضاء ،وعظم عليهم هـذا القـول ، واستهجنوا أن يكون في الدين هذا التنويع والتقسـيم . اذ لم يقفـوا له الا على ذلك التأويل الباطل الـذي تمشدقت به الزنادقة والاباحة تحت ستار ما خيلوه الى الناس تصوفاً ، أو كرامة أو كمالاً .

ولا ضير عليهم في انكارهم هـذا ، ولا عليهم أن يـردوا هـذه الكلمـات الـتي ليس في حقيقتها الا ألفاظـاً اصطلح عليها العلمـاء للتعبـير عن معـنى حقيقي لا ريب فيه لمن آمن بكتـاب الله وسـنة نبيه صـلى الله عليه وآله وسلم ، ثم اصطلح عليها شرذمة ضالة منحرفة للتعبير عن انحرافهم وضلالتهم .

ولكن المهم الـذي لا بد لهم أن يـدركوه ، هو أن الأحكـام الشـرعية الظـاهرة المتمثلة في أقـوال على اللسان أو أعمـال تتلبس بها الأعضـاء ــ لا تكـون مقبولة عند الله ، ولا تثبت للانسـان أجـراً ولا ترفع عنه زوراً ، ما لم تقـترن بالحالة القلبية الـتي يجب أن يكـون الانســان مسـتقراً عليها ، وأن صـلاح النفس والقلب أساس لا بد منه لصلاح الأعمال ظهور ثمراتها .

فاذا استيقنوا هـذه الحقيقة الـتي هي جـوهر الاسـلام وروحه كـان لهم أن يعـبروا عنها كما يشـاءون وأن يستبعدوا من الألفاظ والتسميات المستعملة للدلالة عليها كل ما لا يريدون .

وصفوة القول ، أن الحقيقة الاسلامية التي تعبدنا الله تعالى بها ، لا تتكون الا من تناسق البواعث القلبية مع ظاهر السلوك والأعمال ، ثم السير معاً على المنهج الالهي الذي اختطه لنا كل من كتـاب الله وسـنة نبيه . فان تخلف أحدهما فان سير الآخر وحده لا يعبر عن أي حقيقة اسلامية .

ولولا ضرورة هذا التناسق ، لما امتاز المؤمنون عن المنافقين بشيء .

ولو لا ضرورة هذا التناسق ، لما كان للجهاد والتضحية أي معنى في الاسلام .

ولو لا ضـرورة هـذا التناسق ، لـرأيت المسـلمين اليـوم في أوج من العـزة والوحـدة والقـوة . فقد كـان حسبهم سلماً الى ذلك مساجدهم العامرة ، ومنابرهم الهادرة ، وألسنتهم الداعية ، وعلومهم الزاخرة .

ولكن القلوب وحـدها هي المتخلفة والبعيـدة عن هـذا كله فليس من تناسق بين الظـاهر والبـاطن ، بين الظاهر الذي نتخادع به ، والحقيقة التي يلطع عليها علام الغيوب فلا يخدعه عنها شيء .

الخطر الأكبر .!

وهل تعلم ما هو ، أم هل فكرت فيه قط ؟.

---

[2][2] **قواعد الاحكام 2/179.**

[3][3] **شرح الرسالة القشيرية للشيخ زكريا الانصاري: 37.**

[4][4] **قواعد الاحكام 2/180.**

انه ليس العـدو الـداهم الـذي يسـتقر مسـتعمراً في ديـارك ، وليس الفرقة الـتي تشـتت القـوى وتباعد الصفوف ، ولا تلك الأسلحة المذهلة التي تنـذر بالـدمار الشـامل ، ولا المجاعة الرهيبة الـتي تهـدد نصف الكرة الأرضية بسبب تناقص نسبة الانتاج أمام تزايد عدد السكان .
انما الخطر الأكبر شيء أشد رهبة من هذا كله !.
انه ذاك الـذي يمكن العـدو من التسـلل الى الـديار ، وهو ذاك الـذي يهـيىء الأسـلحة للانفجـار والوقـود للاشتعال ، وهو ذاك الذي يوجد أسباب الخصومة والفرقة ويقضي على فرص الوحدة والتعاون .
انه أعدى عدو لنا على الاطلاق . انه نفوسنا التي بين جنبينا !.
أجل . . فالنفس الانسانية التي لم تقترن ، مع العمل الصالح ، في سـير منضـبط على المنهج الاسـلامي الصحيح ، هي الخطر الأكبر في حياة المسلمين اليوم ، ما في ذلك شك ولا ريب .
ذلك أن الاسـلام في جـوهره ليس الا تهـذيباً وتربية للنفس ، كي تتخلى عما تتسم به عـادة من الأنانية والكبريـاء والتعلق بزخـرف هـذه الحيـاة الـدنيا ، ثم لتـدخل في محـراب العبودية لله تعـالى طوعـاً كما انطبعت بحقيقتها قسـراً . فعندئذ يصـبح السـلوك ثمـرة من ثمـرات عبودية النفس لله ويكـون واقع كل منهما تصـديقاً للآخر . اذ تسـتقر المحبة الأخوية الصـادقة في مكـان الأنانية البغيضة ، وتخضع النفس لقانون العبودية لله بدلاً من الكبريـاء الزائفة على الخلق وتسـتيقن معـنى هـذه الحيـاة الـتي ليست في حقيقتها الا جسراً للحيـاة الخالـدة الأخـرى فلا تتعلق من الـدنيا بشـيء ولا تأخذ من خيرها ونعيمها الا ما يكون عوناً لها على السير في الصراط الاسلام وتحقيق مرضـاة الله عز وجل . فيتم من ذلك الانسـجام المطلـوب بين حقيقة هـذه النفس المسـلمة والسـلوك الاسـلامي الـذي يشـيع في تلاق وتعـاون بين المسلمين ، ولا تجد بين هؤلاء المسلمين سبباً لتخاصم أو تدابر ، ولا يمكن أن يقوم بينهم حقد وتحاسد ، أو أن يفـرقهم عن بضـعهم دنيا يتنافسـون فيها أو زعامة يتسـابقون عليها . فتتـوفر لهم من ذلك القـوة التي لا تغلب ، والوحدة التي لا تتصـدع ، ويتـداركهم الله تعـالى بنصـره الصـادق المـبين ، ويعيشـون في بلادهم أعزاء كرماء آمنين .
وعندما لا تأخذ النفس من هذه التربية بنصيب ـ وتلك هي حال نفوسنا اليوم ـ فان ازدواجاً خطيراً يقـوم في كيان المسلم ، اذ تنشطر شخصيته ما بين سـلوك اسـلامي ظـاهر يتمثل في أقـوال وافعـال معينة ، ونفس هائجة تائهة مستغرقة في أمانيها الدنيوية وأحلامها الذاتية .
وقصـارى ما يكـون عليه صـاحب هـذه النفس من الفضـائل والمزايا الاسـلامية ، أن يلتقط من مظـاهر السلوك الاسلامي كل ما يجر له حظـاً من المغنم ولا يكلفه شـيئاً من المغـرم فيكـون في ظـاهر أمـره معها قائماً بحق الله مجاهداً في سبيله ، وفي باطن الأمر مقدماً للنفس لوناً آخر من مطامحها الدنيوية وأحلامها الذاتية .
والدين في واقع الأمر عند أصحاب هذه النفوس ليس الا ترساً يتقي به أحـدهم ما قد يتلقـاه من الانكـار على خبيثة أمره ، أو هو ليس الا لثاماً يستر به عن الناس حقيقة ما في نفسه .
وهيهـات أن ينهض المجتمع الاسـلامي المنشـود على مجن أو لثـام من التـدين ، دون أن تجد من ورائه تحملاً لما قد يرهق النفس أو يخالف شيئاً من أهوائها وتطلعاتها الذاتية .
وما أيسر على صاحب هذه النفس أن يصـطنع المعـاذير ويفتح لها سـبل التهـرب الشـرعي ، ويـروج من حوله هالة من الضباب التي قد تستر عن الناس خبيثة أمره .
الا أن الدين نفسه لا ينخدع بشيء من ذلك .
لقد جاء من يعتذر الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأنه يخشى على نفسه الفتنة في الـدين لو خرج معه الى جهاد الروم ورأى من حوله نساء بني الأصفر . . فأنزل الله فيه قوله : " ومنهم من يقـول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وان جهنم لمحيطة بالكافرين " (التوبة : 49)
وجاء اليه صلى الله عليه وآله وسلم من يتنطع قـائلاً : ان بيوتنا في المدينة مكشـوفة للعـدو وليس فيها الا الصبية والنساء . . ! حـتى ينفلتـوا بـذلك من الجهـاد في حفر الخنـدق . فـانزل الله فيهم قوله : " . . ويستأذن فريق منهم النبي يقولون ان بيوتنا عورة ، وما هي بعورة ان يريـدون الا فـراراً " (الأحـزاب : 13)
فكيف يتحقق نصر الله للمسلمين اذا كانت ألسنتهم وأقوالهم في واد من الدعاوي ، ونفوسهم تائهة في واد آخر من التنافس على الدنيا والتسابق الى أهوائها ؟!.
ان شيئاً من مقومات النصر الاسلامي لا يمكن أن يثمر في حياة هؤلاء الناس !.
فهم لا يتفقون فيما بينهم . لأن ألسنتهم تلهج بأمر ، ونفوسـهم زائغة في الـوقت ذاته نحو أمـور أخـرى ، فلا يوحدهم هدف حقيقي ولا تجمعهم غاية ذاتية معينة .
وهم لا يثقون بعضهم ببعض ، لأن معرفة كل منهم لواقع نفسه تعتـبر دليل اتهـام لواقع ما عليه الآخـرون !.

وهم لا يتحابون ولا يتوادون عن صدق ، اذ كان تعلق نفوسهم بالدنيا ومغانمها مثار حسد يشيع فيما بينهم ، فلا يكون لأحدهم من شأن أو مكانة أو مال الا وكان في نفـوس الآخـرين منه حسد يفـري نفوسـهم أو ضغائن تلهب قلوبهم ، وربما بات أحدهم يتقلب في هم هذه المشاعر أكثر مما يتقلب في هم المسلمين أو في هم المصير الذي ينتظره بين يدي الله عز وجل .

وهم لا يتعاونون ، من أجل ذلك كله ، الا بمقدار ، وهو المقدار الذي يـوفر لكل منهم مصـالحه ، ويهـيىء له السمعة الفاضلة ، والمكانة اللائقة ، فهم انما يتعاونون في الحقيقة ابتغاء هذه المغانم الـتي لا تتـوفر الا من هـذا الطريق . فـاذا ما امتد بهم السـبيل الى ما وراء ذلك رأيتهم تفرقـوا في مسـالك متباعـدة متنافرة ، ورأيت لكل منهم معذرة يعتذر بها ، وتنشد حينئذ الاتفـاق والتعـاون والاخـاء فلا تقع لشـيء من ذلك كله على أثر !.

وهم بناء على ذلك كله لا ينصرون ، لأن من بيـده المعونة والنصر نـاظر اليهم عـالم بحقيقتهم ، لا يخفى عليه منهم شيء ، فمهما رأيت جموعاً محتشدة أو سمعت كلمـات مخيفة ثـائرة أو اطلعت على تخطيط رائع دقيق ، فـان شـيئاً منه لا يخيف عـدواً ، ولا يؤلف رابطة ، ولا يقيم جامعة ، لأنه غثـاء . . والغثـاء لا يخيف أحداً .

وصلى الله على من حذر المسلمين من هذا الخطر الأكبر يوم قال :

" يوشك أن تـداعى عليكم الأمم ، كما تـداعى الأكلة الى قصـعتها ، قـالوا : أمن قلة نحن يا رسـول الله يومئذ ؟. قال : بل أنتم كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، وسينزعن الله الرهبة منكم من قلوب أعدائكم ، وسيقذفن في قلوبكم الوهن ، قالوا : وما الوهن ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت "[5][5] .

منبع هذا الخطر :

وانما ينبع هـذا الخطر الكبـير من مصـدر واحد ، هو تعلق القلب بالـدنيا ووضـعها في أعلى من المرتبة الحقيقية التي وضعها الله عز وجل فيها . الدنيا ليست ، كما يتوهم البعض محصورة في الدرهم والـدينار والأرض والعقـارات . وانما هي تتمثل في سـائر الشـهوات الـتي تميل اليها النفس ، كالمكانة ، والجـاه ، والزعامة ، والكبر ، والركون الى مختلف مظاهر النعيم . فكل ذلك من الدنيا التي ابتلى الله الانسان بها ليجاهد نفسه في التعـالى عليها والتحـرر من أسـرها ، وليسـوقها بعد ذلك مطية في طريق مرضـاة الله تعالى .

فعندما يتعلق القلب بأهواء الدنيا ، ولا يقوى على التحرر من أسـرها ،ولا يجاهد الرجل نفسه في محاولة ذلك ـ يتفرع عن ذلك شتى الأمراض القلبية التي تعتبر من أعظم الآفات الخطيرة في حياة المسـلمين . فيبتلى القلب بـالكبر والحسد والريـاء والعجب وشـتى الضـغائن والأحقـاد ، ويتغلب الشح على النفس ويشـيع فيها الزهد في الآخـرة ومثوبتها ، ويقل الخـوف من عقـاب الله وعظيم عذابه ، ويتحـول الجهـاد عندئذ الى تنافس على الدنيا ، بعد أن كان سعياً للتحرر من رقب والاستعلاء على مغرياتها .

وتأمل حديث رسول الله صـلى الله عليه وآله وسـلم ، وهو يقـول فيما يرويه الشـيخان : (. . فو الله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكـــني أخشى عليكم أن تبسط الــدنيا كما بســطت على من كـــان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها ، فتهلككم كما أهلكتهم) .

وكيف يكـــون ســبيل الهلاك ؟ . . انها كما قلت لك : يبتلى القلب من وراء التعلق بالــدنيا بتلك الأدواء والأمراض الخطيرة ، فتتصدع وحدة المسـلمين ، ثم تـزول الثقة مما بينهم ويتعـادى فئـاتهم وأفـرادهم ، وتزول أسباب التعاون مما بينهم ، ويأكل بعضهم بعضاً بنيران العدوان والبغضاء ، ويجني العدو ثمرة ذلك لنفسه قهراً وبطشاً وانتصاراً .

فلو مات هؤلاء المسلمون اختناقاً أو دماراً في بيوتهم لكان ذلك أشرف لهم من هذا الهلاك الذي وصـفه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم أثبته الواقع كما وصف .

من نتائج هذا الخطر

ومن أعظم نتائج هذا الخطر الأكبر ، ما قد أوضحت لك ، من تهدم أركان المجتمع الاسـلامي واضـمحلال شأن المسلمين وتفرق أمرهم وتحول العمل الاسلامي فيما بينهم الى شعارات وأعمال سطحية لا ثمـرة لها ولا فائدة منها !..

ومن نتائجه أيضاً أن العمل الاسلامي ينقلب في واقع حال الكثيرين منهم الى مجـرد تخطيطـات شـكلية وأمور حركية تستأثر من حياتهم بالسطح الأعلى وحـده ، ولا تغـوص الى شـيء مما وراء ذلك !. اذ كـان سلطان الاسلام قد تناقص عن القلب ، ثم ظل يتنـاقص حـتى لم يعد له فيه سـلطان ، وعـاد الحكم فيه للدنيا وأهوائها ومصالح النفس ومطامحها . وأصحاب هذه القلوب بين الناس مسـلمون ، وهم يتمنـون لو

---

[5][5] **رواه ابو داود وسنده صحيح.**

أن الاسلام عاد الى السيطرة والحكم ، فيرفعوا رؤوسهم به عالياً ويكون لهم به غلبة وسلطان ـ وهي أمنية دنيوية لا تتنافى مع استحكم في قلوبهم وتعلقت به نفوسهم ـ فيذهبون في نصرته والعمل له مذهب أولئك الذين ينتصرون لمذاهبهم الأخرى :عمل حركي بحت يقوم على النظريات والأفكار والتنظيمات السطحية المجردة .
وقد فاتهم أن بين طبيعة الاسلام وطبيعة المذاهب الفكرية الأخرى فرقاً كبيراً .
فالاسلام قائم في ذاته على تحقق معنى العبودية لله في النفس ، وهو المنطلق الأول لكل عمل وحركة وسعي في سبيله ، وهو يكلف المسلم اصلاح قلبه ونفسه قبل كل شيء أما المذاهب الفكرية الأخرى فلا تكلف نفوس أصحابها شيئاً من ذلك ولا تحملهم على أي اجتناب لما أطلق القرآن عليه اسم : " باطن الاثم " ، ولذلك فان دعوتهم اليها تبدأ من عمل حركي وتنتهي الى عمل حركي ، والنفس سائرة معه بطبيعة الحال لأنه لا يكلفها ترك شيء من أهوائها ومشتهياتها .
الا أن اعراض أكثر المسلمين عن هذا الفارق الأساسي الخطير ، واهمالهم (نتيجة لذلك) لاصلاح القلب والنفس ، جعلهم يقلدون الآخرين في أساليبهم ويحصرون أنفسهم في مثل دائرتهم : نقاش ، ومجادلات ، ولقاءات ، وتفتن في الأفكار ، واختراع للمناهج ، ولا شيء من وراء ذلك .
وربما هون الكثير منهم من أمر العبادات والأذكار وحضور الجماعات وأنواع القربات التي يتوخى من ورائها احياء القلب وايقاظه للحقيقة الاسلامية ، وتخليصه من أمراضه التي نحن بصدد الحديث عنها ، واعتبروا ذلك من دأب العامة وعاداتهم ، وتصوروه شيئاً لا يليق بمن نشط للحركة والدعوة الاسلامية !.
انه وهم عجيب مؤسف . . ! سببه ما قلت لك : الذهول عن الفارق الأساسي الكبير بين الاسلام والمذاهب الفكرية الأخرى ، وبسبب الذهول انصرافهم عن مجاهدة النفس وتركها مع ما تهواه وتطمح اليه .
وليس معنى هذا الذي أقول ، أن العمل الاسلامي ما ينبغي أن يعتمد على تخطيط أو نشاط حركي . . وانما المقصود أن كل سعي في سبيل الاسلام يتوقف نجاحه على أساس جوهري لا بد منه ، ألا وهو اصلاح القلب وتقويمه وانتزاع أهواء الدنيا منه .
ومن نتائجه أيضاً تلك النظرة الخاطئة العجيبة الى من يأخذ نفسه بمراقبة قلبه ، ويسعى بالطرق المختلفة المشروعة الى اصلاح نفسه .
كثير من الناس يرى أن مثل هؤلاء يشغلون أنفسهم بما لا حصيلة له ولا ثمرة منه ، وربما قالوا انه بدعة وضلالة لم يأت بها الدين . !!
والحقيقة التي لا ريب فيها ان هؤلاء هم الذين عرفوا حق الله عليهم فالتزموه ولم يحيدوا عنه ، وما أخذوا أنفسهم به هو الذي بعث به محمد بن عبد الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم . فهو جوهر الاسلام ولبه . ولا خير في اسلام امرىء لم يهذب الاسلام نفسه ولم يسيطر على قلبه بالاصلاح واخراج خط الدنيا منه.
نعم ، انما ينكر حال من قد حصر نفسه في هذه الرياضات وحدا ، حتى لم يعد يحس بضرورة أمر بمعروف ولا نهي عن منكر ولا اصلاح لفساد . فهذا معطل لجانب كبير من واجبات الله عليه بحجة الانشغال باصلاح نفسه وتهذيب حاله .
وانما عليه أن يكون مسلماً كامل الاسلام ، قائما بحقوق الله كلها ، بدءاً من مجاهدة نفسه الى ما وراء ذلك من اصلاح أهله وذوي قرباه الى ما وراء ذلك أيضاً من التعاون مع اخوانه من أجل اقامة المجتمع الاسلامي السليم.
ومن نتائج هذا الخطر الأكبر أيضاً ما قد يترعرع في النفس من العصبية الباطلة الى الجهة التي ينتمي اليها صاحب هذه النفس ، سواء أكانت الجهة تتمثل في أسرة أو قبيلة أو شيخ أو جماعة ، حيث تحمله هذه العصبية على أن يجعل ولاءه وأخوته قاصرين على جهته التي ينتمي اليها . وتظل النفس تتغذى بهذا الشعور وتركن الى هذا الاحساس ، حتى ينمحي من ذهن صاحبها واقع معنى قوله تعالى : (انما المؤمنون اخوة) بواقع الأخوة الضيقة الأخرى التي قام مفهومها في كيانه . ثم تتوالد من ذلك الآثار الضرة المختلفة دون أن يشعر بها أو ينتبه الى خطورتها .
ومن أبرز هذه الآثار ما قد تجده عند هؤلاء من تحول التقدير للفكرة والمبدأ الى تقديس للشخص واليكان !..
فيدو واقع الشخص الذي يقدسه هو مقياس الحق الذي يؤمن به ، بدلاً مما ينبغي أن يكون عليه الأمر من اتخاذ الحق وحدها مقياساً لتقويم الأشخاص وتقديرهم .
وبالمقابل ، فان أحدهم لا يرى في غير الجهة التي يرتبط بها ، ما هو جدير بالتأمل والنظر ، اذ كان الحق ـ في وهمه ـ لا ينبع صافياً معصوماً الا منها . فان كان عند الآخرين ما يخالفها فانما هو في نظرهم دليل على بطلاته ، وان كان متفقاً معها فانما هو مأخوذ منها ومتفرع عنها . !! وما أكثر ما يضل أناس من هذا الطريق ، وما أكثر ما يبدلون أحكام الله ويغيرون شريعته من أجل هذا السبب .

ويرحم الله الداعية الاسلامي العظيم (بديع الزمان) سـعيد النورسي ، فقد أحس ذات مـرة أن من بين طلابه من يذهب في تقديسه مذهباً يعظم فيه الحق من أجل اتصاف النورسي به ، ويــؤمن بالمثل العليا من أجل ما يرى من تجسدها في شخصه فكتب رسالة مستفيضة الى تلاميذه قال لهم فيها:
" اياكم أن تربطوا الحق الذي أدعوكم اليه ، بشخصي المذنب الفاني . ولكن عليكم أن تبادروا فـتربطوه بينبوعه الأقدس : كتاب الله وسـنة نبيه . ولتعلمـوا أنـني لست أكـثر من دلال على بضـاعة الـرحمن جل جلاله . ولتعلموا أ،ني انسان غير معصوم ، قد يفـرط مـني ذنب أو يبـدر مـني انحـراف ، فيتشـوه مظهر الحق الـذي ربطتمـوه بي بـذلك الـذنب أو الانحـراف . فاما أن أكـون بـذلك قـدوة النـاس في الانحـراف وارتكاب الآثام ، أو صارفاً لهم عن الحق بما شوهه واختلط به من انحرافي وآثامي " .
ومرد هـذه العصـبية الخطـيرة ، الى طبيعة الأنانية في الانسـان ، وهي من أخطر الأمـراض القلبية الـتي يجب على المسلم معالجتها والجهاد الدائب للتحرر منها .
الا أن الأنانية قد تتمثل في " النزعة الفردية " عند بعض الناس ، وهم الذين تهيأت لهم ظـروف تقـديس شخصياتهم أكثر من ظروف الانخراط مع أقوام أو فئات وجماعات .
وقد تتمثل في " النزعة الجماعية " عند آخرين ، وهم الذين شغلوا عن فـرديتهم بالانضـمام الى قـوم أو هيئة أو جماعة.
بل ربما تمثلت في مظهر من مظـــاهر الـــدعوة الى لاحق كمن يغضب لمنكر ارتكب أمامه وأريد منه الاستهانة بشخصيته الدينية . . ! انك لتجد أحدهم يستشـيط غضـباً ــ في الظـاهر ــ لما انهـدر من حرمة الـدين وكرامته ، ول كشـفت عن خبيئة نفسه لرأيته انما استشـاط غضـباً لما أصـابه بـذلك من خـدش لحمــرة شخصه وكرامة ذاته . وآية ذلك أنه لو لم يكن في مظهر ديــني معــروف ولم يحس به أحد من أرباب ذلك المنكر ، لمر غير ملتفت اليه ولا عابىء به .
أو كمن ينتمي الى شيخ أو جماعة ، فلا يزال يتعصب له أو لها ـ وهو انما يشبع بذلك نزعته الأنانية ـ حتى يصل به التعصب الى حـال يـرى فيه أن المسـلمين الصـادقين ليسـوا الا من كـانوا ضـمن دائـرة التبعية لشــيخه أو جماعته ، وأن الآخــرين ليســوا الا مســلمين من الدرجة الثانية . وأن من لم يكن منهم فهو عليهم . ! وربما تمثلت هـذه (الأنانية الجماعية) في تعليمـات وشـعارات يغـذى بها الأفـراد المنتسـبون على أنها جزء من التعاليم الاسلامية ذاتها .
ثم ان علاج هذه العصبية التي تنبعث من الأنانية التي وصـفتها ، ليس في أن يتجـرد المسـلم عن صـحبة شيخه الذي يتعلم منه ، أو مرشده الـذي يسـتفيد من رعايته ، أو جماعته الـتي يتعـاون معها . . لا ، ليس هذا هو العلاج .
وانما العلاج أن يدرك المسلم أن كلا من شيخه الذي يتعلم منه ، أو مرشـده الـذي يسـلك على يديه ، أو جماعته التي يتعاون معها ـ انما هو واسطة لا غاية ـ والواسطة لاتحـرز من الأهمية الا بمقـدار انسـجامها واتفاقها مع الغاية التي هي الأصل .
فـاذا أدرك المسـلم هـذا ، علم أن ولاءه انما ينبغي أن يكـون للغاية الـتي هي الاسـلام بحد ذاته ،وانما ارتباطه بوسيلة الشيخ أو الجماعة شيء ما ينبغي أن يكون الا بالقدر الذي يحقق له ذلك الولاء على خير وجه ، ويمكنه من أن يكون مسلماً لدين الله متمسكاً بأحكامه .
فـاذا نمى المسـلم ولاءه لهـذه الحقيقة بمزيد من التعلق والحب ، ذابت طبيعة الأنانية في ضـرام هـذا التعلق ، ولم تجد ما تتجسد فيه من نزعة فردية أو جماعية ، بل تنقلب بطبيعة الحــــال الى تفــــان في سبيل الحقيقة الاسلامية من حيث هي . فلا يكون ارتباطه بـالآخرين ــ أيا كـانوا ــ الا مسـتظلاً بظل هـذا الولاء وخاضعاً لرعايته ورقابته .
فلا يشـغله حبه لشـيخه عن حكم الله عز وجل في حقه ، ولا تقصـيه تبعيته لجماعته واخوانه عن الـولاء لبقية المسلمين الصادقين ، اذ كانت رابطته بشيخه أو جماعته متفرعة عن ارتباطه الذاتي الأوثق بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وما يقضيان به من المبادىء والأحكام[6][6] .

---

[6][6] **لا ينبغي ان يفهم هذا الكلام الذي لا بد منه ، على انه توهين لحركة الدعوة الاسلامية او انه دعوة الى ايجاد جماعة اخرى من المسلمين ينفردون ن بقية فئاتهم وجماعاتهم في سلوك منفرد وسبيل مستقل.**
بل الذي لا نشك فيه ان كثرة الفئات والجماعات المتشعبة المتخالفة في الرأي والسلوك تزيد في مصائب المسلميناواسباب تفرقهم وتدابرهم.
وانما نقول : ان حركة الدعوة الاسلامية الصادقة لا يكلؤها عن الوقوع في الضعف والشتات والتمزق والانقسام، الا دوام التنبيه والتحذير من الوقوع في مثل هذه المنزلقات والاخطاء.

وخلاصة القول ، ان جميع ما يعانيه المسلمون اليـوم من الآفـات والمصـائب المختلفة ، انما هو نـابع من هذا الخطر الأكبر .
فلولاه ، لتوفر في أفئدهم بهم الصدق والاخلاص ، ولو توفر لديهم لذلك لشـاعت الثقة فيما بينهم ، ولتم فيهم ذلك لتعاونوا متحدين متضمنين في أسرع محاولة ومن أيسر سبيل .
ولو تحقق ليهم هذا لتفجرت أسباب القوة في حياتهم ولشاعت الرهبة منهم في صدور أعدائهم ، فعادت اليهم كرامتهم المسلوبة واسترجعوا مكانتهم الخطيرة العظمى فوق هذه الأرض .
ولكن أفئدتهم لما انصرفت متعلقة بمختلف مظاهر الـدنيا ومغرياتها ، من مـال ، أو جـاه ، أو منصب ، أو شـهوات على اختلافها ، شـاع فيما بينهم التنـافس عليها والأثـرة من أجلها . فاسـتحكمت في أفئـدتهم الضغائن والأحقاد وراحـوا يـراقب بعضـهم بعضا بعين الحسد أو الازدراء وانمحت الثقة بـذلك مما بينهم ، وقامت الظنة مكانها في نفوسهم !.
واكتشف عدوهم فيها هذه الأدواء والمصائب الأليمة ، فوضع هم فيها ،وركز سـعيه عليها ، واتخذ الاهلاكم بها أقرب سبيل .
أما ما نراه مسدلاً فوق ذلك من مظاهر الاهتمام بلاسلام ، والدعوة الاسلام ورسم الخطط والأفكـار من أجله ـ فلم يعد شيء من ذلك يحرك ساكناً أو يخدع جاهلاً ، أو يصلاح فاسداً .
ولكنه ، ويا للأسف ، قد يخـدع فتية أغـراراً ، شـبت نـوازع الاسـلام قوية حـارة بين جـوانحهم الغضة ، وأفكارهم اليائعة . فهم لا يكادون يبصرون شيئاً من مظاهر الاهتمام بالاسلام أو يسمعون كلمـات منمقة عنه الاوقد انقذفوا ، في حماسة وصدق ، للسعي والعمل والجهاد بالقدر الـذي تطوله سـواعدهم وتجـود به امكاناتهم .
ولئن كانت لرحمة الله الينا من سبيل ، فانما هي بفضل هؤلاء .
ولئن كان بيننا وبين سخط الله وعاجل عقابه من حاجز ، فانما هو باخلاص هؤلاء .!
شبان ، يحرقون شبابهم الرائع سعياً على صراط لله الـذي حفت بجوانبه شـتى المغريـات والأهـواء وقد صدقوا وعده وآمنوا بوعيده ، وتعلقت منهم الآمال بمرضاته . !
فياملهم الخير ومقلب القلوب ، طهر قلوبنا هذه عن كل وصف يباعدنا من مشـاهدتك ومحبتك والتمسك بدينك ، وأجمعها على السعي مرضاتك ، وارفع عبادك الـذين وضـعتهم في طريق دعوتك ، الى مسـتوى هذا الشرف العظيم اخلاصاً وصـدقاً وتفانيـاً ، واجعلهم عند حسن ظن هـؤلاء الفتية الأطهـار انك سـميع الدعاء.

وهذا هو العلاج

وقبل ان أحدثك عنه ، ينبغي أن أسألك أولاً :
هل علمت المشكلة ، وأيقنت بحقيقة الداء وتشخيصه ؟.
ذلك ، لأن ادراك المشكلة يساوي نصف الطريق الى حلها ، والتأكد من حقيقة الداء يعتـبر نصف العالجة له .
فان لم تكن قد آمنت بهذا الذي ذكرته لك ، وكنت في شك من أن مـرد بلائنا ــ على اختلاف مظـاهره ــ الى هذا الخطر الأكبر الذي شرحته لك بايجاز ، فان وصف العلاج لا يجدي ، لأن دوافع استعماله مفقـودة .
أما ان استقر كلامي في نفسك ، وأيقنت أن هذا هو سر كل ما نشـكوه من أحوالنا ، فانك سـتلتقت الى ما أقوله باهتمام ، وتحاول ما دمت صادقاً مع الله عز وجل في اسـلامك ــ أن تسـتعمل هـذا العلاج جهد استطاعتك وأن تدعو الناس اليه وتذكرهم به .
ولسوف يكون من اليسير عليك أن توقن بأنه العلاج الذي لا بديل عنه ، وأن تجزم بأن جميع المسلمين ـ على اختلاف درجاتهم وطبقاتهم ـ بحاجة دائمة الى استعماله والاستفادة منه .
وأنا ، انما أصفه لنفسي أولاً ، ثم أذكر به من شاء من المسلمين ثانياً . وأسأله سـبحانه أن يجعلنا ممن يتواصون بالحق ، ويتواصون بالصبر عليه .

* * *

وبقدر ما يفتح دعاة الاسلام قلوبهم لنقد سليم او توجيه سديد، يزداد عملهم نضجاً وقواهم تماسكاً، وبقدر ما يستعلون عن قبول النصح الصحيح والنقد السليم تزداد عوامل التصدع فيما بينهم وتتجمع اسباب الشقاق في صفوفهم.

طالب ، يجلس في قاعة امتحـان ، منهمكـاً في كتابة الأجوبة المطلوبـة. أستسـقى المـراقب كأسـاً من المـاء ، فلما جيء اليه بها ، شـرب المـاء . . ثم ثبتت عينـاه على الكـأس وانصـرف تفكـيره اليها ، وراح يتأمل صفاءه ورقتها والمعمل الذي أنتجها !.
ونسي الطالب الامتحان ، والأسئلة ، والزمن الذي ينطلق من حسابه سريعاً ، وراح مسـتغرقاً في النظر الى الكأس !.
ترى ما هو العلاج الذي ينبه الطالب من هذا الغفلة ، ويعيده الى التفكير فيما هو بسبيله ؟..
انه شيء بسيط جداً.
العلاج ، أن يـأتي من يـذكره بأنه في قاعة امتحـان وأن الـوقت يوشك أن ينتهي ، والمـراقب يوشك أن يأخذ الأوراق من بين يديه .
ان المسألة واحدة ، ولا فرق بين الصورتين .
الا أن قاعة الامتحـان هنا أ'ظم ضـخامة وأكـبر اتسـاعاً ، والمـادة الامتحانية أخطر بكثـير !.. أما العلاج فواحد . وهو أن يأتي من يذكر هذا الانسان بنفسه بذاته وينبه الى الساعات بل اللحظات الخطيرة الـتي يمر فيها ،والى المصير الرهيب الذي ينتظره . وخير من يذكر هذا الانسان بذلك ، وازع من داخل كيانه .
العلاج ، أن نتذكر ، يا أخي المسلم ، هويتنا في هـذه الحيـاة ، ثم الوظيفة الـتي خلقنا للقيـام بها ، ثم أن نستمر في تذكرها كلما سهونا أو غفلنا عنها .
وما هي هويتنا الحقيقية !.. اننا عبيد مملوكون لله عز وجل ، بيده جميع تقلباتنا واليه وحده مصـيرنا ، وله وحده حياتنا ومعادنا . .
هوية دمغ عليها قول الله عز وجل : (ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين) .
ويستوي في الانصباغ بحقيقة هذه الهوية كل مؤمن وكافر .
أما وظيفتنا التي خلقنا من أجلها ، فهي أن نضع هذه العبودية موضع التنفيذ ، فنقيم عليها سـلوكنا وجميع مظاهر حياتنا .وانما يكون ذلك بأن نسمو على كثير من خصـائص النفس وأهوائها ، ونخضـعها لما أمر به الله عز وجل ، ثم أن تعنوا له وحده بالحاجة والذل ، فلا يعلق القلب بأحد غيره ولا نطلب خـيراً الا منه ، ولا نستعيذ من شر الا به وهذا السلوك هو فرق ما بين المؤمن والكافر .
فـاذا عرفنا ذلك ، أدركنا الغاية العظمى الـتي يجب أن نتجه اليها في حياتنا الـدنيا ، وأدركنا مـدى أهمية هذه الغاية . وعندئذ تعلم أن جميع ما دونها من مظاهر الدنيا ينقسم الى نـوعين : وسـائط للوصـول الى هذه الغاية ، ومعوقات تقطعنا دونها . وماذا تفعل اذا كنت تجتاز مفازة الى غاية لك ؟..
انك تعمد الى الوسائل الموصلة أو المقربة فتستخدمها ، وتنظر الى العقبات فتنحرف عنها أو تجتــاز من فوقها .
وهذا بعينه ما يدعونا الأمر الى سلوكه في الحياة ، تجاه الغاية العظمى التي خلقنا لها :
أما الوسـائط الموصـلة الى الغاية فتسـتخدمها لها . وذلك هو شـكر الله عليها ، وأما العقبـات المقطعة فتحيد عنها أو تجتاز من فوقها. وذلك هو الصبر الذي أمرنا به الله عز وجل .
ولا يجهل هــذه الحقيقة الا أحد رجلين : جاحد بالله عز وجل ، فهو لا يــؤمن بعبودية ولا وظيفة ولا غاية ، وهذا لا حديث لنا معه في هـذا المقـام . أو ذاهل عنها بسـبب ما اسـتغرق فيه من المغريـات والملهيـات والمنسيات ، وهذا انما يعالج أمره بالتنبيه والتذكير .
وقد علم الله عز وجل أثر ملهيــات الــدنيا ومنســياتها ، في ابعــاد المــؤمن عن التنبه الى حقيقة ذاته ووظيفته . فوضع أمام عينيه هويته الكاملة في شعار من كلمتين : " ايك نعبد ، وايـاك نسـتعين " وأمـره أن يكررهما بين يديه عز وجل في كل ركعة من صلاة . حتى يكون له من ذلك ـ ان كان مسلماً حقاً ـ ما يقاوم ملهيات الدنيا ومنيساتها ، فيتذكر دائماً أنه لي الا عبداً ذليلاً لمالك قاهر عظيم ، فوظيفته أن يدين بالعبودية الكاملة له ، وأن يستيقن أنه لا نفع ولا ضرر الا منه فهو وحده المستعان في كل شيء .
فاذا تذكر المؤمن هذه الحقيقة ، ثم ظل على تنبه لها . أو كان سرعان ما ينتبه لها كلما أخذ عنها بشي " من مشاغل الدنيا وأهوائها ، تجرد قلبه عن التعلق بكل ما سواه :
فلم يتعلق بمال ولا جه ولا ثناء ولا عجب ولا كبر ، ولم يعد ينصرف قلبه الى حقد أو ضيغنة أو حسد ، ولا الى أمل يوثقه بأحد من المخلوقين .
اذ هو قد أشرب معنى العبودية لمالك الملك كله ، فهو لا ينصرف بحاجاته الا ليه ، ولا يطرق سائلاً سوى بابه ..
فان أعطي شكر وسخر العطاء لتحقيق المزيد من مرضاته .
وان منع صبر وأيقن أن ذلك هو الخير له في دنياه وآخرته .
وهـذا معـنى قـول رسـول الله صـلى الله عليه وآله وسـلم لعبد الله بن عبـاس رضي الله عنهما : " اذا سألت فاسأل الله واذا اسـتعنت فاسـتعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعـوك بشـيء لم

ينفعوك الا بشـيء قد كتبه الله لك ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضـروك بشـيء لم يضـروك الا بشيء قد كتبه الله عليك "[7][7] .

وهـذا يوضح لك انه لا يشـترط لعـدم تعلق القلب بشـيء من الـدنيا أن يقتلع الانسـان من قلبه طبيعة الاحتياج اليها والى مشتهياتها ، فهـذا امر منـاف للفطـرة الـتي فطر الله عبـاده عليها . وانما المعـنى أن ينصـرف بحاجاته كلها الى لله عز وجل فيطلب منه فقط ما يزيد ويحب ، ويشـكو اليه فقط ما يـألم منه ويعـاني ، تحقيقـاً لقوله عز وجل : " فـابتغوا عند الله الـرزق "[8][8] ، وقوله : " وأسـألوا الله من فضـله "[9][9] ، وقوله : " ففروا الى الله اني لكم منه نذير مبين "[10][10].

بل ان العبد ـــ اذا تعلق قلبه بالله عز وجل ـــ يـــزداد عبودية له ، كلما ازاداد شـــعوراً بحاجاته وتطلعاته المختلفة . ذلك لأن مادة العبودية في الانسـان انما هي الحاجة والضـعف (وخلق الانسـان ضـعيفاً) فلو لم يكن محتاجاً الى هذا الذي فطر على التعلق به ولو لم يكن ضعيفاً عن نيل كل مبتغياته ، لما كان ثمة معنى لالتزامه موقف العبودية لله عز وجل .

ولـذلك ، لم يكن أي تنـاف بين الرضا بقضـاء الله تعـالى والشـكوى اليه . بل هما عنصـران لا تم حقيقة العبودية لله عز وجل بدونهما .

وقد اجتمعا في دعائه عليه الصلاة والسلام عند رجوعه من الطائف ، اذ قال : " اللهم اليك أشكو ضـعف قوتي قلة حيلـتي وهـواني على النـاس ، يا أرحم الـراحمين أنت رب المستضـعفين وأنت ربي . الى من تكلـني ؟ الى بعيد يتجهمـني أم الى عـدو ملكته أمـري ؟ ان لم يكن بك علي غضب فلا أبـالي ـــ ولكن عافيتك أوسع لي . أعوذ بنور وجهك الـذي أشـرقت له الظلمـات وصـلح عليه أمر الـدنيا والآخـرة من أن تنزل بي غضبك أو يحل علي سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة الا بك " .

واذاً ، فـان العلاج هو أن نظل على ذكر لهويتنا الحقيقية ، ومعرفة لوظيفتنا الـتي كلفنا الله تعـالى بها ، وأن نجعل منها غاية نضعها نصب أعيننا ونتخذ من الدنيا بما فيها وسائط لتحقيقها .

وتلك هي حقيقة العبودية لله تعالى ، وتلك هي أرفع منزلة يتبوؤها الصديقون ، ويتطلع اليها المخلصون . أما عـوام النـاس فتلتبس عليهم هـذه الحقيقة بمظـاهر العبـادة فيقفـون عند التمسك بهـذه الثانية ، ولا يلتفتون الى شيء من خطورة الأولى وأهميتها[11][11] .

ولـذلك كـان القـائمون بـأمر العبـادات الظـاهرة هم الكـثرة الغالبة من المسـلمين ، وكـان المتحققـون بالعبودية الباطنة هم القلة النادرة فيهم .

* * *

استعمال هذا العلاج

ذلك هو العلاج ، ولكن كيف السبيل الى استعماله ؟.

كيف السبيل الى أن تصطبغ بحقيقة العبودية لله وحده ، فلا يستعبدك مال ولا جاه ولا غرض شخصي ولا شيء من آفات النفس من أنانية وكبر وعجب وأثرة وغير ذلك ؟

لا ريب أن السبيل الى ذلك ليست سبيلاً ميسورة " وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم " وقوله : " والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا " . وهو الفارق الذي يفصل المـؤمن الصـادق في ايمانه عن المنـافق الذي تجمل بمظهر التدين والايمان . وهو الحاجز الذي يمنع المسلم من الدخول تحت قوله عليه الصـلاة والسلام :

" تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الدينار ، تعس عبد القطيفة ، تعس وانتكس ، واذا شـيك فلا انتقش ، ان أعطي رضي ، وان لم يعط سخط "[12][12] .

---

[7][7] **رواه الترمذي وقال حسن صحيح.**

[8][8] **العنكبوت: 17.**

[9][9] **النساء : 32.**

[10][10] **الذاريات: 50.**

[11][11] **يجدر بالقارئ الكريم ان يرجع للتوسع في هذا البحث الهام الى كتاب "العبودية" للشيخ ابن تيمية رحمه الله تعالى.**

[12][12] **رواه البخاري وابن ماجه.**

وهو الحارس الذي يحمي ايمان المرء من الذئبين الجائعين اللذين حذر منهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قوله : " ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم ، بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف ، لدينه "[13][13] .
ومن أجل أهمية هذا الجهاد ، وكونه الطريق الوحيد الموصل الى مرضاة الله تعالى والمؤدي الى ساحة العبودية الصادقة له ـ بذل سلفنا الصالح رضي الله تعالى عنهم كل طاقاتهم في هذا الطريق ، وسلكوا الى جهاد النفس ورد غوائلها مسالك مختلفة كثيرة ، حتى أدى هذا الاهتمام ببعض منهم الى مبالغات وتكلفات أخرجتهم عن حدود الشريعة وهدي النبوة .
ونحن نستعرض من ذلك كله ما أجمع عليه السلف وتمت عليه دلال الكتاب والسنة ، ونذكر أنفسها بأنه جوهر الاسلام ولبه ، وأنه السلم الوحيد الى التحقق بالمنهج الالهي الذي ألزم الله تعالى به عباده ، وأنه المفتاح الذي لا بد منه لتيسير كل صعب ، وجمع كل شمل ، وتحقيق كل نصر .
وأذكر نفسي بذلك كله أولاً ، ثم أوصي به أخواني ثانياً ، سائلاً الله تعالى أن يمدنا بعون منه وتوفيق .
وهذه هي الوسائل :

* * *

أولاً ـ تفكر الانسان في ذاته ومصيره ، ورقابة الله عز وجل عليه ، وايقاظ العقل الى ذلك عند كل غفلة ونسيان .
والفكر حركة العقل ، فمن دونه لا يغني العقل شيئاً . والفكر هو الذي يحرر العقل من سلطان النفس وأهوائها وعقدها . فمن دونه لا يستبين الانسان الفارق بين دلائله العقلية وابحاءاته النفسية .
ولذلك يختم الله تعالى كثيراً من آياته الكونية وأوامره الالهية بقوله : لعلكم تتفكرون . . ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون . . أفلا تتفكرون ؟.
ولذلك أيضاً كانت الركيزة العظمى في حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، مؤمناً ،وداعياً ، ومجاهداً ، انما هي الفكر الدائم . وما كان عبثاً أن يلهمه الله تعالى الابتعاد عن ضوضاء الناس وحياتهم ومفاسدهم ليخلو الى عقله مفكراً ومتدبراً ومتأملاً ، في غار حراء ، مدة طويلة من زمن .
وكلما كان التفكر في نجوة عن الناس وضوضائهم وملهيات الدنيا وأهوائها ، فان نتيجته تكون أصدق وأدق . اذ النفس الانسانية تستقبل ما يردها من الدوافع والايحاءات عن طريق نوافذ كثيرة كلها مفتحة عليها ، فمنها العقل والمنطق الصافي ، ومنها الأهواء والشهوات المركوزة في كيان الانسان ، ومنها ردود من مشاعر النقص أو دوافع الكبر أو السلطان العصبية ، ومنها عقد أوجدتها الضغائن والأحقاد والمنافسة على حطام الدنيا وزخرفها الكاذب .
وليس الشأن أن يحسن الانسان الاصغاء الى هذه الأصوات كلها ، انما الشأن كل الشأن في أن يحسن الانسان الاصغاء الى صوت العقل وحده متميزاً من بين هذه الأصوات كلها !.
وانما يتم ذلك بساعات منظمة من الخلوة أو العزلة ، يجعل الانسان لعمره نصيباً منها ، يتجرد فيها لعقله المستقل الحر يسأله عن مصيره وعن حقيقة كل هذا الذي يضج ويتراقص من حوله ، مستعيناً بذكرى كلام الله تعالى وبالغ عظاته وكلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعظيم ارشاده .
ولست أدعوك ، بهذا الذي أقول ، الى الانعزال عن المجتمع ، والعيش بعيداً عنه في كهوف جبال أو بطون أودية . فليست هذه فطرة الانسان ولا هي وظيفة المسلم .
ولكنني أدعوك الى أن تخلو الى عقلك كلما رجعت الى حساب صندوقك . أي فأنا أدعوك المثل ما يعفله التاجر الذي يعيش عمره بين صخب الناس وضجيج الأسواق . ان ذلك لا يمنعه عن أن يخلو الى نفسه في غرفة من غرف داره ، بين كل حين وآخر ، متجرداً حتى عن الأهل والولد والمؤنس ، ويعكف مستغرقاً عل دفاتره وأوراقه وحساباته .ولو لا اهتمامه بمثل هذه الساعات في عمره لما قدم له متجره الذي يغص بالغادين والرائحين الا الندامة والخسران !.
أدعوك الى أن تسلك أي سبيل تحرر فيه فكرك مما قد يتسلل اليه ، في غفلة منك أو ملاحظة ، من وحي العصبية أو دوافع المصالح الزائفة المحرمة أو دواعي العقد النفسية المختلفة حتى تملك الاطمئنان الى أنك انما تسير وفق منهج من التأمل العقلي الحر .
وقد كانت هذه الوسيلة في حياة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام هي أخذ النفس بساعات من لخلوة والابتعاد عن الناس وما فعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذلك الا تعليماً وتشريعاً لأمته .
ولا تنس أن من أهم ما يعينك على دوام الفكر والذكر ، الاكثار من مجالسة الصالحين والركون اليهم ، وأن من أهم ما يبعدك عنهما الاستغراق في مجالس اللهو والركون الى صحبة الغافلين ، والاستمتاع

---

[13][13] **رواه احمد والترمذي وابو داود.**

بمجالس يذوب فيها العمر الثمين ، رخيصاً ، بالخوض في لغو لا طائل منه ، والعكـوف على نهش لحـوم ميتة بالغ القرآن في تبشيعها والتحذير منها .
ثانياً : التزام ورد دائم منتظم من قراءة كتاب الله تعـالى ، وما يتبعه من التسـبيح والاسـتغفار وذكر الله تعالى .
أما قراءة كتاب الله تعالى فما أظن أنك بحاجة الى سرد ما ورد من الأحاديث الصـحيحة في فضل تلاوته وتدبره ولم يقع خلاف بين المسلمين في أن التقـرب الى الله تعـالى بتلاوة كتبـاه يعد من أفضل القـرب الى الله عز وجل .
وكم من ذي قلب قـاس غليظ لم يلينه سـوى تلاوة كتـاب الله ، وكم من غافل مسـرف على نفسه لم يوقظه الى ما هو فيه سوى تدبر كتاب الله ، وكم من عين لم تذق طعم الدموع من خشية الله تعالى الا من خلال النظر في كتاب الله .
وقد كل لكل من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ورد معين من تلاوة القرآن في كل يوم وليلة . وربما شغل أحدهم عذر ضروري عن ورده ذات يوم ، فقضاه في اليوم الثـاني في حسـرة وألم مما قد فـرط منه كما وقع لعمر ابن الخطاب رضي الله تعالى عنه في بعض الأحيان .
وأما الذكر والتسبيح والاستغفار ، فذل هو العلاج الذي وضعه الله تعـالى لرسـوله عليه الصـلاة والسـلام وكرر الأمر في كثير من أي القرآن .
فقد قال : " وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، ومن آناء الليل فسـبح وأطـراف النهـار لعلك ترضى " .
وقال : " وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار " .
وقال : " واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغد والآصال " .
وقال : " واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طـويلاً " . وقد أجمع العلمـاء ــ بناء على ذلك ـ على أنه لابد للمسـلم أن يتخذ ورداً دائمـاً من التسـبيح والاسـتغفار وتلاوة القـرآن ، وأن أفضل وقت لذلك هو البكور والآصال .
فاذا عرض له عـارض شـغله عن أداء ورده في وقته المعتـاد ، كـان الأفضل أن يتداركه فيما بد ، في أي وقت من النهار والليل ، حتى لا يكون انشغاله عنه ذريعة الى اهماله وتضييعه .
وقد ثبت في صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : " قـال رسـول الله صـلى الله عليه وسلم " من نام عن حزبه أو عن شيء منه فقرأه ما بين صلاة الفجر وصـلاة الظهر ، كتب له كأنما قرأه من الليل " .
ولا تلتفت الى من يـزعم لك بـأن الـذكر عبـادة مطلقة وأن تعـيين وقت خـاص للعبـادة المطلقة بدعة محرمة !.. فان هذا الذي يزعم ذلك انما يريد أن يقصيك عن ذكر الله تعـالى من أخبث سـبيل . ذلك لأن من يضع هذا الوهم في حسابه ، لا يكاد يؤدي هذه العبادة العظمى في أي وقت من أوقات حياته ، اتقـاء للبدعة فيما يزعم !..
وربما أبصرته في هذه الأوقات الفاضلة من البكـور والآصـال ، فرأيته يغط في نـوم عميق أو يتلبس بلهو أو غيبة محرمة ، دون أن يتنبه الى خطورة ما هو فيه من اثم وضلال حذر منهما كتاب الله تعالى بصـريح البيان وربما كان شفيعه في ذلك أنه لا يريد أن يشغل الوقت ببدعة من الذكر في وقت معين !!..
ثم أعلم أن أثر كل من تلاوة القـــرآن وذكر الله تعـــالى عظيم في معالجة أدواء النفس وأمراضـــها . اذ يتكـــون في القلب ، من الاســـتمرار عليهما ، شـــعور بالرقابة الالهية على كل ما يتلبس به الانســـان من التصرفات والأعمـال والنيـات . فما يكـاديهم بعمل شـيء أو ينطـوي على قصد محـرم حـتى يدفعه هـذا الشعور الى تقويم عمله وتصحيح نيته .
وتلك هلي الحراسة الالهية العظمى في حياة المسلم ، وذلك هو الاحسان الذي وصفه رسول الله صـلى الله عليه وسلم بأن يعبد المسلم ربه كأنه يراه فان لم يكن يراه فعلاً فهو موقن بـأن الله عز وجل يـراه .
ولا يتحقق ذلك الا بملازمة كتـــاب الله تعـــالى والاكثـــار من ذكـــره وشـــغل القلب بمراقبته . فهو العلاج الأعظم لتزكية النفس وكنس ما قد يرسب فيها من أمـراض الكـبر والحقد والحسد وحب الـدنيا والتعلق بأسباب السمعة والجاه والمناصب الدنيونية الفانية .
ولا ريب أننا لا نقصد بالـذكر حركة اللسـان في الفم ، ولا فرقعة السـبحة في اليد ،ولا مجـرد القفز على أصوات المنشدين وأنغامهم .وانما نقصد به ما أراده الله تعالى في كتابه عندما أما بـذلك نبيه صـلى الله عليه وسلم ، وما يعلمه كل عالم باللغة العربية عندما يقول القائل : لقد ذكرت فلاناً طوال هذا اليوم .
انه ذكر القلب ، وحركة الفكر ، وتيقظ الوجدان .
وان كـان لحركة اللسـان من فائـدة ، فانما هي تنبيه القلب وايقـاظ الوجـدان ، وحجـزه عن الأحـاديث الملهية التي قد يشتغل به ان هو فتر عن ذكر الله تعالى .

أما ان ضرب بين اللسان والقلب بحاجز ، حتى أصبح اللسان يلهج بالذكر والدعاء والتسبيح ، والقلب غارق في الدنيا وأحلامها وأهوائها المحرمة ـ فان صاحب هذه الحال لا يسمى ذاكراً ولا متعبداً وانما هو يظهر بين الناس بمظهر الذاكرين . وليس له من فائدة أكثر من أنه يجعله بين الناس كذلك !

ثالثاً : كثرة الدعاء والابتهال والتضرع لله عز وجل .

وهذا العلاج عبادة ذات أهمية كبرى ، بل هو مخ العبادة ولبها ، بل هو العبودية التي تعتبر أرقى مراتب القرب الى الله عز وجل .

ولقد أكد الله تعالى أمر عباده بالدعاء وأكثر من ذلك في كتابه ، وجعله من أهم سمات عباده المخلصين .

فقال جل جلاله : " أدعوا ربكم تضرعاً وخفية انه لا يحب المعتدين "[14][14] وقال : " فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون "[15][15] .

وقال . " ولا تفسدوا في الأرض بعد اصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً "[16][16] . ووصف الخلص من عباده بقوله : " انهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين "[17][17] .

وانما يستشعر الانسان أهمية الدعاء والتضرع الى الله عز وجل ، عندما يشعر بحاجته الماسة الى الله تعالى ، ويستيقن لا معين غيره وأن لا رجاء الا منه ، فعندئذ يدعوه بقلب صادق وشعور مستيقظ خاضع .

وذلك كمن وقع في كرب أطبق عليه وعجز جميع الناس عن تفريج كربه حتى يئس منهم ، وعلم أن الله تعالى هو وحده الذي اذا شاء فرج كربه وأزال ضره فرفع يديه الى السماء يقول بملء فمه وقلبه : يارب .

أما من لم يستشعر هذه هذه الحاجة ولم يحس بضي أو بلاء في حياته ، فانه لا يجد ما يحمله على الدعاء ، لأنه لا يشعر انه بحاجة الى شيء ، ولا يرى من حوله أي مكروه حتى يستنجد بالدعاء منه .

وذلك كمن عاش يتقلب في حمأة المحرمات وينغمس في أمواج الأهواء والشهوات لا يشعر الا بلذاتها العاجلة وقطوفها الأولى . فلو ذهبت تنصحه بالدعاء حتى يخرجه الله مما هو فيه ، لسخر منك ، وجعلك في حساب من يقوله له : أدع الله على نفس بالحرمان والشقاء .

وربما رفع يده يحرك لسانه ببعض الأدعية الدارجة أو يؤمن على دعاء انسان ولكن ذلك منه لا يسمى في الحقيقة دعاء ، وانما هو وتقليد له ، وهو أبعد ما يكون في نظر الله تعالى عن الدعاء الذي أمر به في قوله : " ادعو ربكم تضرعاً وخفية " .

وأبرز نموذج لذلك ، أولئك الذين يسبحون في حياة من الغي والآثام ، فاذا أقبلت الى أحدهم تنصحه بالرشد وتذكره بالله وعقابه ، رفع يده قائلاً : الله يهدينا!

انه يدعو أمامك بهذا الدعاء ، ولكن قلبه يردد في الوقت نفسه عكس هذا الدعاء تماماً ، اذ هو يشفق في الحقيقة على لهوه أو عصيانه أن يتخطف منه ، ويود أو أن السبيل اليهما كان أعرض وأيسر وانما هو يتظاهر أمامك بهذا الدعاء ، تهرباً من نصيحتك قطعاً لسبيل الحجة عليه .

أما اذا ذاق العاصي ذل المعصية في سلوكه ، واستشعر قلبه الأسى مما هو متعلق به من الذنوب والآثام ، فرفع يديه يسأل الله الهداية والعون ، فذلك هو الدعاء الصادق الذي أمر الله تعالى به .

ومعلوم أن الذي يعين الانسان على السير في سبيل الاستقامة انما هو توفيق الله تعالى ، ولو تخلى توفيق الله تعالى عن الشاب الصالح المستقيم لا نقذف منذ تلك اللحظة الى أقصى مظاهر الانحراف .

وانما يتم توفيق الله تعالى للمسلم بأمرين اثنين :

صدق الارادة المتجهة الى الخير ، واخلاص الدعاء المتجه الى الله عز وجل بالضراعة والذل.

فاذا صدق المسلم في عزمه على الاستقامة واتباع سبيل مرضاة الله ، ثم ابتهل الى الله تعالى بقلب واجف وضراعة صادقة ، فان الله تعالى يسوقه في طريق الهداية سوقاً ، وبقيه من سوء النفس والشياطين .

وقد استوقفني شاب ذات يوم في رحاب الجامعة ، وشكى الى في التياع وألم ، أن نفسه تنازعه على الشر وأنه لا كياد يقوى على امتلاك زمامها والتغلب عليها ، وأن حياة الجامعة تزيد من ضراوة نفسه ، وناشدني الشاب أن أهديه إلى سبيل بها من عذاب نفسه .

فقلت له : أرايت إلى هذا الالتياع والرجاء اللذين تعرض بهما شكواك علي . اعرض هذه الشكوى نفسها بمزيد من الالتياع على ربك جل جلاله ، وناجه وتضرع إليه في ساعة ليس بينك وبينه فيه أحد ، واسأله

---

[14][14] **الاعراف : 55.**
[15][15] **غافر : 14.**
[16][16] **الاعراف: 56.**
[17][17] **الانبياء: 90.**

أن يمنحك التوفيق والقوة ، فإنك إن فعلت ذلك وكررته مـراراً اسـتجاب الله دعـاءك وحقق لك التخلص من عذاب نفسك بأيسر سبيل .

إن انتهـاء الإنسـان إلى حالة تجعله مضـطراً لمد يـده إلى من يعينه في تخليصه من عـذاب يعانيه ، ثم لا يجد من حوله إلا الله جل جلاله ـ هو جوهر العبودية القسرية الـتي فطر الله الإنسـان عليها . وإن وقوفه في ضراعة وذل على أعتابه جل جلاله يدعوه ويسأله ويرجوه ، هو جوهر العبودية الكسبية التي أمر الله الإنسان أن يمارسها .

وربما رأيت ناساً يهونون من أمر الدعاء ، محتجين بأن ما يطلبه العبد إما أن يكون مسـطوراً في قضـاء الله أو لا فأن كان مسـطوراً لم ينفعه الـدعاء في طلب الوقاية منه وإن لم يكن مسـطوراً لم يحتج إلى الدعاء من أصله ! .

ولا نريد أن نطيل في الإجابة على هـــذا الاحتجـــاج بما قاله العلمـــاء في كتب التوحيد ، فبحثنا هنا يتسم بطابع آخر .

ولكنا نقـول : إن الله عز وجل أمر عبـاده بالـدعاء ووعـدهم بالاسـتجابة ، فقـال : " وقـال ربكم ادعـوني أسـتجب لكم . . " ووعد الله صـدق لا يلحقه خلف . وهـذا ما يهمك أنت ، فما لك وللبحث فيما ليس من شأنك واختصاصك ، و فيم تؤرق فكرك في أمر عائد إلى تدبير الله تعالى وعظيم قدرته وسلطانه ؟

قضاء الله تعـالى حكم من أحكامه ، واسـتجابة الـدعاء وعد قطع على نفسه بإنجـازه . وإنما وظيفتك أن تخضع لحكمه و تؤمن بوعده ثم تكل تدبير الأمر أليه .

ومعنى هذا الكلام الـذي قلنـاه ، أن على المسـلم أن يتلمس أولاً ما قد يعانيه قلبه من الأمـراض الخفية الـتي لا يطلع عليها غـيره ، ثم يستشـعر خطورتها وأثرها في حجـزه عن اتبـاع مرضـاة الله تعـالى ، وإن تحلى بظاهر من السلوك الصالح المستقيم .

فإذا استشـعر ذلك ، عالجه ــ إلى جـانب الـدواء ين اللـذين ذكرناهمـا ــ بالـدعاء المسـتمر لله تعـالى في ضراعة وتذلل وبقلب منكسر . وليستشعر أنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً ، وأن قلبه بين إصبعين من أصابع الرحمن جل جلاله ، فهو الذي يسـتطيع أن يشـفيه من أمراضه ويخلصه من آفاته وعوائقه .

وليقدم وسيلة وشفيعاً إلى الله تعالى بين يـدي ذلك ، صـدق الإرادة وسـلامة النية وذل النفس بين يـدي ربوبيته وسلطانه .

وليختر لذلك أفضل الأوقات وأقربها إلى قبول الدعاء ، وليحرص على أن يستفيد من وقت السحر ، ذلك الوقت الذي يكون قد هدأ فيه ضـجيج العصـاة وسـكنت النفـوس إلى لـذة النـوم ، فتجلت من خلال ذلك رقابة الله على عباده .

حاول جاهداً أن تمسح عن عينيك غشاء النوم تلك الساعة ، ثم قم فأسبغ الوضوء ، وقف بين يدي قيـوم السـماوات والأرض مسـتغرقاً في ذل العبودية له ، ثم ابسط يــدك إليه وأنت مـــوقن أنه يـــرى ذلك وضراعتك ويسمع بكاءك ونجواك ، ويـراقب أنين نفسك من أوجاعها . واسـأله أن يطهر قلبك من أدرانه ويخلصه من آفاته ، وأن يجنبك ظـاهر الإثم وباطنه . وألح في الــدعاء ، وأكــثر من الرجــاء ، وابك على نفسك وأيامك التي قد خلت في غفلة عن الله تعالى وفي غفلة عن مراقبة قلبك .

إنك إن فعلت ذلك ، واسـتمر بك الأمر على هـذه الحـال ، اسـتجاب الله دعـاءك وتـدارك أمـرك ، وطهر سريرتك ، وأورثك طعم الصدق في العبادة ، ولذة الإخلاص في الدعاء .

ولكن لا بد من الثبات على هذه الحال ، إذ لا يكون الفرار إلى الله تعـالى من آفـات النفس إلا بواسـطة ذلك ، فهو السـلم الـذي تـرقى به إلى الله عز وجل ، وما دمت على قيد الحيـاة فلا بد لك من مواصـلة الصعود على السلم ، وإلا فيوشك أن تنزلق بك القدم في لحظة واحدة فترجع إلى حيث كنت .

رابعاً : (وهذا علاج سلبي) تجنب أكل الحرام . فإن الجسم الذي ربي على المال الحرام ، يضم ـــ على الغالب ـ نفسـاً نزاعة إلى الانحـراف والانفلات من حـدود الله تعـالى ، وإذا انضـبطت ضـمن حـدوده في الظاهرة ، تجمعت منها الأدواء والأمراض الخطيرة في الباطن .

والمال الحرام يبدأ من سلب أموال الآخرين بدون رضاً ، ثم يتنوع إلى أنواع وأشكال مختلفة حتى تنتهي عند الشبهات المختلفة التي هي مظنة الحرام .

ومن لم يستطع أن يتخلص من الشـبهات ، اسـتطاع ــ إذا شـاء ــ أن يتخلص من المحرمـات . ومن وجد معذرة يتذرع بها بالنسبة للوقوع في الأولى لم يجد أي عذر يتمسك به بصدد اقتحام الأخرى .

وللتغذي بالمال الحرام نتائج خطيرة جداً في حياة المسـلم . أهونها ما يعانيه القلب من قسـوة عجيبة لا تحركه معها موعظة واعظ ، ولا تــذكرة مــذكر ، ولا ينفعه معها تحــذير ولا تــرغيب ولا تــرهيب .اذ يقع الانفصـــال بـــذلك بين العقل والقلب ، فيــدرك العقل دون أن يتــأثر القلب ، ويخضع الأول دون أن يلين الثاني . وهيهات أن يملك العقل وحده قيـاده السـلوك في حيـاة الانسـان ، ذلك أن الأثر الأعظم انما هو للقلب الذي هو ينبوع الرغائب والعواطف كلها .

ومن شأن التهاون في الأخذ بهذا العلاج ، أن يجعل اسلام المسلم شعاراً يصطبغ به ظاهره فقط ، أما الباطن الخفي فمسوق في سبل أخرى تخطها دوافع الشهوات والأهواء ونوازع النفس وطباعها الخلفية .

واذا استمر المسلم في تهاونه ، وأقبل على المال الذي تطوله يده كيفما أتفق ، لم يعد يفيده شيء من العلاجات السابقة التي ذكرناها . فلا تلاوة القرآن تنبهه من غفلة ، ولا الأذكار والأوراد تصلح شيئاً من حاله ، ولا دعاؤه يسمع أو يستجاب .

وقد روى مسلم والترمذي وغيرهما من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : يا أيها الناس ان الله طيب لا يقبل الا طيباً ، وان الله أمر المؤمنين بما أمر به المسلمين ، فقال : (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً اني بما تعملون عليم) وقال : (يا أيها آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم) قال : وذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يده الى السماء : يا رب ، يا رب ، ومطعمه حرام ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذي بالحرام . فأنى يستجاب له ؟!

وما أكثر المسلمين اليوم اذا عددتهم بمقياس الصلاة والعبادات الظاهرة واستعمال المسابح في الأيدي وتعويد اللسان على المواعظ والكلمات الدينية المنمقة .

وما أقل المسلمين اليوم اذا عددتهم بمقايس التعفف من عن الوقوع في المال الحرام والتزام حدود الله في ذلك ، وملاحظة مرضاة الله تعالى حيال ما قد يدخل في الجيب . !

وكم رأينا مسلمين ، يحسبون في خيارهم ومن أفضلهم ، يصوغون الكلام حلواً عذباً في الدعوة الى الاسلام وهدي ،حتى اذا لاحت لأحدهم سيبل تجارة رابحة تستوجب بعض الانحراف عن ميزان الاسلام وحكمه ، أسرع يقتحم السبيل غير هياب ولا وجل ، فاذا ما نبهه أخ له مسلم ، تأول ما لا يحتمل التأويل وصاغ في سبيل ذلك فقهاً جديداً لا أساس له ولا دليل عليه .

هذه العلاجات الأربعة ن هي السبيل الذي لا بد منه لا صلاح حال القلب وتخليصه من الأمراض الخفية ، التي عبر عنها القرآن بباطن الاثم .

ومن دون استعمال هذا العلاج والاهتمام بباطن الاثم ، لا يصلح للمسلمين أمر ، ولا تجمعهم جامعة حق ، ولا يتخلصون من عوائقهم المختلفة التي يضجون منها اليوم .

لا تعنينا التسميات

وبعد : فما اسم استعمال هذه العلاجات التي تحدثنا عنها ؟

هل هو التصوف ؟ .. أم هو السلوك ؟! . أم هو التربية ؟ ربما صح أن نستعمل أي سام من هذه الأسماء الثلاثة ، وربما صح أن نجد لذلك اسماً أو أسماء أخرى ، ولا حرج في ذلك ولا اثم .

فقد سماه البعض تصوفاً كجمهور كبير من المسلمين الذين أهمهم بحث هذا الأمر ، وقد سماه بعضهم بالسلوك كالامام ابن تيمية رحمه الله[18][18] ، وكل ذلك اصطلاح وليس في الاصطلاحات من حرج .

ولكن اذا دار الأمر بين الأفضلية ، فلا ريب أن أفضل الأسماء وأشدها ارتباطاً بالمسمى انما هو " الاسلام " .

إذ الاسلام ، بمصدريه : الكتاب والسنة ، هو الذي نبهنا الى خطورة الأمراض الخفية المستكنة في أعماق النفس ، وهو الذي أرشدنا الى العلاج وعلمنا كيفية استعماله .

وقد كان لنا من سلوك رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلوك أصحابه الذين ساروا على نهجه ، أعظم نموذج تطبيقي لهذه الحقيقة .

وهل الاسلام في جوهره أكثر من هذه الحقيقة ذاتها ؟!

وشيء آخر . . هو أن " الاسلام " هو الكلمة الوحيدة التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمضمون كتاب الله تعالى وسنة نبيه ، بل هو الاسم الدال على هذه المضمون ، ففي التعبير بكلمة " الاسلام" تحقيق للرقابة التي يجب أن توفر لهذا العلاج وطرق استعماله ، وتحذير من أن يتسلل اليه ماليس من مضمون الاسلام في شيء .

وبالمقابل ، فان في تسميته بالأسماء المختلفة الأخرى ما يقصيه ــ ولو من حيث الشكل ــ عن دائرة الاسلام ، ولا يبعد أن تتسلل اليه في ظل من هذا الاقصاء أمور ليست من جوهر الاسلام وحكمه .

وقد رأينا كيف تيسرت سبل البدع والمنكرات الى هذا الجانب الجوهري العظيم من الاسلام ، بعد أن أقصى عنوانه الحقيقي السليم ثم وضع تحت أسماء وشعارات وعناوين أخرى .

وشيء ثالث . . وهو أن في الناس اليوم من يحسب أن اسم التصوف يطلق على مذهب من مذاهب الاسلام ، وأن المتصوفة ليسوا الا فرقة من بين فرقهم المختلفة . وقد استغل هذا الوهم ، أو قابلية هذا

---

[18][18] **انظر الجزء العاشر من فتاوى ابن تيمية.**

الوهم ،كثير من المستشرقين فعنوا بالتصوف ودراسته ،تحليل فلسفته ، وراحوا يضعونه في اطار يكسبه سمة الذاتية والاستقلال ، ليعمقوا أسباب هذا الوهم وليخيلوا الى المسلمين أن أرباب هذا السلوك فرقة أبدعت لنفسها هذا النهج المعين في مقابل ما أبدعه سائر المسلمين من نهج آخر مختلف عنه !
ولا ريب أن هذا الوهم ظهر في بعض الأحيان بمظهر الحقيقة، وذلك بسبب ما دخل في قوامه (عند البعض) من الاختراعات والمنكرات التي ليس من الاسلام في شيء .
كل هذا يحملنا عل أن لا نستبدل بالاسلام أي اسم آخر لأي جزء من مضامينه وحقائقه .
ولا أفهم أي وجه للتعصب عند اسم التصوف ، اذا كنا مجمعين على ضرورة التحلي بمضمونه الاسلامي العظيم !.
ولكن الانصاف يقضي بأن نقول ان جزءاً كبيراً من تبعة هذه التسمية وشيوعها انما يناط بأولئك الذين يتهاونون بأمر اصلاح الباطن واتخاذ الوسائل المشروعة له .
ويقفون موقف المعارض لما يسمى بالتصوف في مجموعه .
ان أحدهم لا يجد لحال أولئك الذين يأخذون أنفسهم بملازمة الأذكار والأوراد ويسلكون مسلك الرياضات المشروعة لرد غوائل النفس عنهم ـ الا اسم التصوف . وان أحدهم لا يرضى أن يسير في طريق هؤلاء السالكين ، لأنه يحسبه ـ في وهمه ـ شيئاً زائداً على الاسلام !!..
فيمضي ينعت هذه العلاجات التي وصفناها والحديث عن الأمراض الخفية التي نبهنا اليها باسم آخر غير اسمه الحقيقي . ثم يمضي يحرم حياته الاسلامية من جزء كبير وخطير من المضمون الاسلامي بسبب هذا الوهم الخاطىء العجيب .
ولو أن هؤلاء تأملوا ، فتنبهوا الى أن السعي الى اصلاح النفس وسلوك السبل والمشروعة الى ذلك ، انما هو جوهر الاسلام وروحه ، ولو أن أولئك الآخرين تأملوا أيضاً فتنبهوا الى أن هذه السبل التي يأخذون أنفسهم بها ليست شيئاً أكثر من الاسلام الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يسموه الا باسمه الحقيقي ـ اذا لما كان لهذا الذي يسمى بالتصوف أي هيكل ذاتي مستقل في وهم أحد من الباحثين ، ولوجد المسلمون أن في أسم " الاسلام " ما يتسع للتعبير السليم عن كل جانب من جوانبه وفرع من فروعه .

التصوف الأخلاقي التصوف الوجداني

كل هذا الذي قلناه انما يدخل تحت ما يسمى بالتصوف الأخلاقي .
وهو في الحقيقة عبارة عن الخلق الاسلامي الذي جاء به الاسلام وخط الوسائل التربوية الحكيمة له .
أما القضايا الأخرى التي تدخل تحت ما يسمى بالأحوال والشهود والفناء والبقاء ونحو ذل ، فانما هي وصف لحالات وجدانية يتدرج فيها أولئك الذين يأخذون أنفسهم بترويض القلب على المراقبة الدائمة لله تعالى، وعدم الانشغال عن ذكره بشيء من مشاغل الدنيا ومظاهرها ، فان أحدهم اذا استمر مدة على هذه الحال ، ضؤلت أمامه شواغل الدنيا وأخذ يظهر له من خلالها عظمة الخالق لكل ما يتصف به من صفات الكمال ، وربما ازداد لديه هذا الشعور تأثيراً وقوة فيذهل عن الكون بالمكون ويغيب عن الوجود بالموجد وذلك ما يسمى عندهم بالفناء.
فاذا استمر في سلوكه ومراقبة قلبه وأحواله الباطنة طبق هدي الكتاب والسنة وأحكامهما ، عاد مرة أخرى الى اليقظة والانتباه للدنيا وأحوالها مع بقاء قلبه مشدوداً الى الخالق جل جلاله ، فهو يتعامل مع الدنيا دون أن يتأثر بها ، ويختلط بالناس ويعاشرهم دون أن يشغله ذلك عن الله تعالى . وذلك ما يسمى عندهم بالبقاء .
وتلك هي المنزلة التي اتصف بها الأنبياء والصديقون وتحلى بها أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام ، اذ كانوا أكمل قلوباً وأقوى احتمالاً .
وقد ذكر ابن تيمية رحمه الله في كتابه القيم (العبودية) الفناء ومعناه فقال : " هو الفناء عن شهود السوى ، وهذا يحصل لكثير من السالكين ، فانهم لفرط انجذاب قلوبهم الى ذكر الله وعبادته ومحبته ، وضعف قلوبهم عن أن تشهد غير ما تعبد وغير ما تقصد ، لا يخطر بقلوبهم غير الله بل ولا يشعرون به . . . فإذا قوي على صاحب الفناء هذا فإنه يغيب بموجودة عن وجوده ، وبمشهودة عن شهوده ، وبمذكورة عن ذكره ، وبمعروفه عن معرفته . . ".
ثم قال : (وهذا الفناء كله فيه نقص ، وأكابر الأولياء كأبي بكر وعمر والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار لم يقعوا في هذا الفناء فضلاً عمن هو فوقهم من الأنبياء ، وإنما وقع شيء من هذا بعد عصر الصحابة).
فإذا علمت هذا نقول :

إنه لا يجوز للمسلم الذي يرى تقصيره في جنب الله ، ويلمس أمراضه القلبية التي تبعده عن الله تعالى ، أن يشغل شيئاً من وقته بالحديث عن التصوف الفلسفي والوجداني فيعكف على دراسة أحوال القــوم وشرح مقاماتهم المختلفة التي تحدثنا باختصار عنها .
فإن هذه الأمور أذواق لا تفهم إلا بمعاناتها ولا نستفيد منها علماً يقـرأ أو يحفظ وإنما نسـتفيد منها واقعـاً إسلامياً صحيحاً يحيا فيه الإنسان .
ولو ذهبت تتحدث عمراً كاملاً عن مواجيد أصحاب الأحوال وتحليل كلمـاتهم وتتبـارك بشـطحاتهم ، فـأن شــيئاً من ذلك لا يقربك إلى الله تعــالى شــروى نقــير ، ما دمت غــير ملتفت إلى ما تعانيه نفسك من أمراض الكبر ،والحسد ، والتعلق بالدنيا ، والعجب ، والرياء ، والضغائن ونحوها .
وما رأيت أعجب من حال أنـاس تركـوا من التصـوف ما يمثل جـوهر الإسـلام ولبه ، مما كنا نخـوض في بحثه في الصفحات الماضية ، وراحـوا يعكفـون منه على دراسـات فلسـفية لا يفهمونها ، ويخوضـون في البحث عن مواجيــدً وأحــوال ليســوا من أهلها ، ويــرد دون شــطحات فــاه بها بعض من عــانى من هــذه الأحوال ذوقاً ولم يصطنعها تكلفـاً . فلئن كـان أولئك معـذورين (من أجل هـذا) بنطقهم بها فـإن هـؤلاء ليسوا معذورين بتقليدهم فيها وباتخاذ كلماتهم تلك موضوع درس ومحط بحث وينبوع فائدة ! ! . .
إنني أدعو نفسي ، وأدعو جميع إخواني وأصحابي ، وأدعو هؤلاء جميعاً إلى الإقبال على تزكية النفس . .
وتزكية النفس هي الغاية الــتي تطــوف حولها شــرعة الإســلام ، وهي المــرمى البعيد لجميع الســالكين والمتصوفين إلا من انحرف منهم وشد عن الصــراط ، وهي البـاب الـذي يـدخل منه المسـلم إلى سـبيل مرضاة الله ، وهي العلاج لكل بلاء ، والمخرج من كل فتنة .
خــذوا ، يا هــؤلاء ، من ابن عــربي وصــاياه واتركـوا له فتوحاته ، اقـرؤوا من كتبه " معـارج القـدس في محاسبة النفس " الكتاب الذي يكشف عن عيوب المسلمين وما يختبئ خلف مظــاهر هم الطنانة الرنانة من النقائص والأمراض الخطيرة ومظاهر الرياء والسمعة وحب الـدنيا وحب الرئاسة ـــ ودعـوا له أحواله وشطحاته وما لا تفهمون من أقواله .
حـتى إذا ذابت من نفوسـكم غوائل الـدنيا وأمراضـها ، فلم تعـودوا تتـأثرون بعصـبية باطلة ، ولم يعد من فرق عند كم بين الـدنيا إذا أقبلت أو أدبـرت ، وبين من يكيل لكم عبـارات المـديح ومن يـرميكم بسـهام القدح والتجريح ـ حان لكم عندئد أن تدخلوا في هذا الباب الثاني وأن ترتعوا في هذا الميدان الخطير .

مشكلتنا أخلاقية وليست فكرية

ومعنى كل هذا الذي ذكرناه أننا نعاني من مشكلة تتعلق بالخلق والوجــدان ، وليس لها أي تعلق بالقناعة أو الفكر.
والعجيب أن في الناس من يشعرون بالمشكلة ، ويتنبهون إلى هذا الخطر الأكبر في حياتنا ، ولكنهم بدلاً من أن يعالجوه بهذه الســبل الــتي ذكرناها ، يعالجونه بمزيد من الأبحــاث الفكرية والنظريــات الفلســفية يطرحونها في ميدان المناقشة والـدرس . وكـأن المشـكلة عقـدة جهل تسـتحكم بالعقل وليست مرضـاً خطيراً تعاني منه النفس ! .
فمــاذا يجـدي أن نسـهب في شــرح " المجتمع " ، أو نفتن في كشف المخططـات العدوانية الـتي يسـير عليها أعداء الإسلام وأرباب الغزو الفكري ، أو تهتم بعـرض المزيد من منهجية الفكر الإسـلامي والـدعوة الإسلامية ـ وإن البلاء الذي يعانيه المسلمون ليس الجهل بشـيء من هـذا كله وإنما هو المـرض العضـال الذي يستحكم بنفوسهم ؟ ! .
ليس بالمسلمين حاجة بعد اليوم ، إلى أي مزيد من هذه الدراسات الفكرية ، فالمسلمون ـ على اختلاف ثقافاتهم ـ أصبحوا يملكون من الوعي في هذه النواحي ما ينسج لهم الحصـانة الكافية ، لو أن الأمر كـان موكولاً إلى الوعي وحده .
وإنما هم بحاجة بعد اليوم إلى القوة الهائلة التي تدفع بهم إلى التنفيذ . وهيهات أن يكـون أمر التنفيذ بيد الفكر أو العقل وحده .
والقوة الهائلة التي يحتاجون إليها إنما هي قوة الأخلاق . !
إن الملحد الذي يمارس أمامك حياة التحلل والإلحاد ليس مشـدوداً إلى حياته تلك بسـبب فكـري مجـرد كما قد تظن ، ولكنه مشدود إليها بأهواء نفسية مستحكمة .
وإن العالم الغربي الذي يخوض حمأة المـادة ويتقلب في أوحـال الرذيلة ، ليس مسـوقاً إلى تلك الهاوية بسائق فلسفة أو نظرية معينة ، وإنما هو مسوق إليها بدافع مرض خلقي يعانيه ، وإن هو حاول أن يخفي هذه الحقيقة إلى أمد .

أعلم شاباً هداه الله بعد انحـراف وإلحـاد ، التف من حوله أصـدقاؤه وأوليـاء أمـره السـابقون يناقشـونه ليستجروة مرة أخـرى إلى ماضـيه معهم . ولما أسـقط في أيـديهم من بـاب النقـاش والبحث الفكـري ، قالت له زميلة سابقة :

ولكنك شاب في مقتبل العمر ، فلتمتع شبابك بالحياة ، " وللمشيخة " وقت لا حق فيما بعد !

وأعلم أن رجلاً باكستانياً يعيش في إحدى جهات أوربا يدعو إلى الإسلام ، ولما سئل عن مدى نجاحه في الدعوة هناك ، قال : إن الرجل الأوربي لا يعوزه الدليل على معرفة الحق ، إنه سرعان ما يـؤمن بـالحق إيماناً فكريـاً صـادقاً ، ولكن المعـذرة الـتي تشـده إلى الـوراء دائمـاً هي التحلل الـذي اسـتمرأته نفسه وقامت عليه حياته ، فهو لا يجد في أفكاره التي يؤمن بها ما ينجده للتخلص من سلطان نفسه ! .

إن مثل هـؤلاء النـاس لا ينجيهم من المشـكلة الـتي يعانونها أن تحشو أدمغتهم بمكتبـات من النظريـات والأبحاث الفكرية عن الإسلام ، وإنما يفيدهم شيء واحد ، هو أن تشعل فيهم كوامن الوجدان ، بما لديك من لوعة القلب.

لوعة القلب . . هي البلسم الذي لا يغـني مع فقـده أوقـار من الكتب تفيض بالأفكـار الدقيقة والتحليلات الرائعة.

لوعة القلب . . هي السر العجيب الذي يقلب حياة الإنســان فيقــرب له البعيد ، ويلين له الحديد ، ويجمع أهواء النفس من شتات ، وينسيك طعم الدنيا وأهواءها بما يذيقك من حلاوة مراقبة الله وشهوده .

لوعة القلب هذه ، لا تأتي من إرهاق الفكر لاعتصار مزيد من النظريات والأبحاث ، وإنما تأتي من إرهاق النفس بمزيد من العبادات ، والمثول بضراعة أمام باب الله تعالى في الأسحار .

هذه اللوعة . . هي الـتي افتقـدها محمد إقبـال بين المسـلمين على الـرغم من بحثه الطويل عنها وسط ضجيج نقاشاتهم ورائع أبحاثهم وعظيم مكتباتهم ! .

أما الأفكار ، والبحوث ، والدراسات . . فكل ذلك أمر مفيد لا بد منه ، ولكنه لا يعدو أن يكـون مرحلة من مراحل الطريق[19][19] .

إن الأفكار والأبحاث محدودة ، مهما اتسع نطاقها ، ومن العبث أن نعـود فنـدرس هـذه الأفكـار من أولها كلما انتهينا بـالبحث والـدرس إلى آخرها ، لا نتجـاوز هـذه المرحلة ولا نربطها بـأي جهد آخر سـواها ، ولا نحرك نفوسنا شبراً عن الأرض التي التصقت بها والأهواء التي تعلقت بها .

على أن هـذا الـذي نقـرره يعد مسـألة من المسـائل الفكرية المتعلقة بالإسـلام ، إذا ما لا حظنا الجـانب التأملي منه . غاية الأمر أنه يعتبر الحلقة الواصـلة بين آخر الدراسـات النظرية وأول المرحلة التطبيقية . فلتكن لهذه الحلقة الفكرية نصيبها الكافي من دراساتنا وأبحاثنا الإسـلامية ، حـتى لا نتحـرك حركة لولبية

---

[19][19] **.. أجل .. كل ذلك امر مفيد لابد منه. هذا ما نقوله ولكنا نضيف الى ذلك ان الابحاث العلمية والدراسات الفكرية انما تعد وسيلة الى هدف. فاذا لم يتحقق الهدف فان الوسيلة تفقد بطبيعة الحال قيمتها! .. كم من رجل يتحلى بوسيلة العلم واحكامه وقواعده، ويتمتع بلسان يملك من البيان سحراً ، ولكنك تراه في سلوكه رأساً في النفاق، فاي قيمة اذاً لعلمه الغزير وفكره البصير؟!.. ولو نظرت ، لرأيت ان اخطر ما قد افسد مجتمعنا الاسلامي انما هو نفاق الكثير من علمائه لا جهل بعض من افراده.**

وشيء آخر نضيفه ، وهو ان عملية الفهم والعلم ضرورة حتمية بعد التأمل في الدلائل والمقدمات ، فان الذي يتأمل في (1+1) لا ان يسوقه عقله الى اليقين بانه =2. ولكن مرحلة التنفيذ والتطبيق لمقتضى ذلك العلم فعل اختياري ، تحول بينه وبين الانسان في اكثر الاحيان عقات كثيرة متنوعة ، هيهات ان تتذلل وتتحطم الا من وراء جهود شاقة عظيمة الا وهي جهو التربية والاخلاق.

وانظر الى هذا المعنى ، كم هو بارز ودقيق في قوله تعال : (وجحدوا بها واستيقنها انفسهم ظلماً وعلواً) لقد وجد اليقين الفكي ، ولكن ها هو الجحود السلوكي قد خنقه بدفع من كبرياء النفس وعلوها . اذاً فعليك ان تحطم كبرياء النفس اولاً، وان تصعد بها الى مستوى الطمأنينة للحق، ليتفاعل اليقين العلمي معها سلوكاً وتعاوناً وانسجاماً ، وعندئذ فقط تحل المشكلة حلاً سليماً كاملاً.

في أرضنا وحتى لا يستجرنا الخصوم بما يختلقونه كل يوم من مشكلة جديدة إلى سلسلة لا تنتهي من الدراسات والردود والمناقشات .

والخلاصة . .

وخلاصة كل ما ذكرناه ، أن المسلمين يشكون اليوم من أنهم متفرقون متدابرون ، ويتساءلون عن سبيل لجمع كلمتهم وتوحيد سبيلهم .
ونقول : إن الذي فرق أمر المسلمين إنما هو الحواجز القائمة في نفوسهم ، ومن دون زوال هذه الحواجز لا يجتمع لهم أمر ولا يصلح لهم حال .
هذه الحواجز أقوى شأناً من المجالس الجامعة واللقاءات المتكررة والشعارات الواحدة .
وقد فرغنا من شرح هذه الحواجز وأنواعها وآثارها الخطيرة في حياة المسلمين . ثم ذكرنا العلاج الذي يذيب هذه الحواجز ويمحوها من النفوس .
وإذا أردنا اختصار الطريق في الكلام ، فلنقل إن الحمض الذي يذيب هذه الحواجز كلها إنما هو : الإخلاص .
فإذا توفر الإخلاص لدين الله في القلب ، زال الكبر من النفس وحل التواضع مكانه ، وزالت الأحقاد والبغضاء منها وحل الود والوئام مكانهما ، وزال حب الدنيا والتطلع إلى مناصبها ومغرياتها وحل مكان ذلك التطلع إلى مرضاة الله والنجاة من عقابه و وعيده ، وزالت العصبية بألوانها وأشكالها المختلفة وحل مكانها الولاء للإسلام من حيث هو . والإخلاص كلمة سهلة على اللسان ، حبيبة إلى القلوب مطربة للأسماع . فهي ــ من أجل ذلك ــ من أكثر الكلمات تداولاً وتكراراً . ولكن معناها من أعظم المعاني أهمية في الحياة ، ومن أبعدها أثراً على المجتمع ، ومن أشقها على النفوس عند التطبيق .
إلا أنها فقدت الكثير من أهميتها وخطورتها وبعد تأثيرها ، لكثرة ما يتاجر بها المدعون ويتحلى بها الكاذبون وينادي بها أصحاب الشعارات الفارغة .
إن الإخلاص إذا استقر في القلب ، استقر حب التضحية معه في النفس .
وبماذا يضحي المخلص ؟ . . إنه لا جرم يضحي ، بعوائقه ومصالحه و آفاته النفسية في سبيل الحق الذي أخلص له.
وعلى الذي يشكو من أنه لا يجد سبيلاً للتضحية بهذا كله ، لشدة تعلقه بذاته ، أن يروض نفسه على التضحية باتباع ما ذكرناه .
أما الذي لا يريد أن يفعل هذا ولا ذاك ، فليقلع عن دعوى الإسلام والتمسك به ، وليكف عنا ضجيجه المتواصل حول التألم لفرقة المسلمين وتدابرهم .
إن الذي لا يرى ما يمنعه من تحوير حكم الله تعالى والتلاعب به كيفما شاء ، استبقاء لمنصب دنيوي يتعلق به أو سعياً إلى هوى من أهوائه النفسية ، لا ينبغي أن يتحدث بكلمة واحدة عن سر تفرق المسلمين وتدابرهم . فما هو من بلائهم في شيء وليس في قلبه عليهم أي توجع أو عذاب .
والذي يعيش في الدنيا ليربي فيها كبرياءه ويغذي أنانيته ويدافع عن عصبيته ،ما ينبغي أن يلبس على نفسه وعلى الناس فيخلط الغيرة على الدين بالغيرة على كبريائه ، ويخلط الدفاع عن الحق بالدفاع عن عصبته أو عصبيته .
والذي يفهم أن الإسلام ما ينبغي أن يكون فيه تبتل في النفس وعبودية في القلب وذكر يفيض به الوقت ، ودعاء واجف في الأسحار ، وإنما يريده (فيما يتمناه) قولاً . . وحركة . . وتخطيطاً . . فقط ـ يجب أن لا يبحث عن معالم إسلامه هذا بين آيات كتاب الله وسنة رسوله وحال سلفنا الصالح من قبل ، وإنما عليه أن يبحث عنها بين أرباب المذاهب والأفكار الحديثة ، فمن عندهم فقط يستطيع أن يستورد قوالب إسلامه الذي يريد .
والذي يرغب أن لا يكون الإسلام أكثر من انقطاع في المساجد أو الزوايا ، وأن لا يكلف أهله أكثر من أوراد تتكرر مع كل صباح ومساء ، وقفز وإنشاد يمتعون بهما النفس على وهم أنهم يصلحون بهما القلب ـ يجب أن لا يردد من القرآن آيات الجهاد ، وأن لا يتذكر من سيرة رسول الله صلى عليه وسلم سعيه الرائع العظيم في سبيل إقامة المجتمع الإسلامي وحكم الإسلام ، وأن لا يتذكر أنه عليه الصلاة والسلام ساد هذا المجتمع الإسلامي العظيم ثم سلمه أمانة إلى أجيال أمته من بعده .
أما الذي فهم الإسلام كما أنزله ربه عز وجل : إيمان بالله وحده ، ويقين بأنه عبد مملوك لهذا الإله الواحد الأحد ، واعتقاد بأنه مخلوق في هذه الدنيا ليكون عبداً له عز وجل بالكسب والاختيار كما قد خلقه عبداً له بالجبر والاضطرار ، واعتقاد بأن مصيره إلى الله وأنه سيلاقي جزاء ما قدم ، ثم عمل دائب بعد ذلك على دفع النفس الأمارة باسوء في مدارج الإصلاح والقرب إلى الله ، وعلى دفع المجتمع الذي هو فيه إلى صعيد الحكم بما أنزل الله ـ فهذا هو الذي يعتبر فهمه وسلوكه نواة صالحة لوحدة

إسـلامية صـالحة ، وعلى هـذا المحـور يمكن أن يجتمع أمر المسـلمين ، ومن هـذا المنطلق ينصر الله جماعة المسلمين ويمد هم بالتأييد والعون .

فلنفترق على عهد

وبعد ، فأنا أدعـوك ــ أيها القـارئ ــ ونفسي ، إلى سـبيل لا يجعل حظي وحظك من هـذا الكتـاب مجـرد رصف للقول وتحسين للكلام ، ولا مجرد قراءة له أو استطلاع .
أدعوك إلى أن نفترق على عهد نلتزمه بين يدي الله عز وجل .
عهد يكون في الدنيا سر سعادتنا ، وقبساً من النور في طوايا يوم عـرض الحسـاب ، وقـدماً راسـخة لنا عند اجتياز الصراط .
تعال نفترق على هذا العهد :
أن نستيقظ مع فجر كل يوم ـ إن فاتنا التيقظ قبله ـ ونبـدأ صـفحة اليـوم بـأداء صـلاة الفجر مع الجماعة الأولى في أقرب مسجد ، ثم نظل في إقبال على الله تعالى ذاكرين مبتهلين ، إلى أن تشرق الشمس .
أن تتحول ـ عند سماع صوت الأذان ـ أينما كنا ومهما كانت ظروفنا وأعمالنا ـــ إلى أقـرب مسـجد ممكن فنصـلي الفريضة مع الجماعة الأولى . فلن تضر مخاضة الـدنيا مسـلماً يلـوذ منها بـبيوت الله في اليـوم والليلة خمس مرات.
إن نبـذل كل جهد في سـبيل أن لا ننفق العمر الثمين إلا بطاعة لله مـبرورة ، أو سـعي مشـروع ابتغـاء دراسة أو رزق ، أو راحة مباحة عقب ملالة أو نصب .
إذا أقبل الليل وأوى كل منا إلى فراشه ، فليذكر أنه ربما كان يستقبل ضجعة لا يستفيق منها ، وأنها ربما كانت آخر عهده بالدنيا ، وليسترجع عندئذ ساعات عمره الحوالي ، وما قد أضاعها به من اللهو والعصيان ، ثم ليستغفر الله منها بقلب متأثر نادم ، وليقرأ المعوذتين والإخلاص والكافرون وبقية الأذكار الواردة[20] ، ثم ليحاول أن لا يغمض النوم عينيه إلا وهو مسبح مستغفر ذاكر .
إذا أقبلت إليك الدنيا بخيرها ونعيمها أو بمصائبها وشرورها ، فلا تنس الحقيقة التي هي ملء الكون كله : أن لا معطي ولا مانع ولا نافع ولا ضار إلا الله عز وجل وأن الناس لا يملكون من أمر أنفسهم ولا من أمر بعضهم لبعض شيئاً . ثم علق القلب به وحده ، شاكراً لأنعمه ، صابراً على ابتلائه ، ضارعاً عند بابه .
إذا انفتلت من صـلاتك وانتهيت من أورادها ، فلا تتحـول عن مكانك حـتى تبسط يـديك إلى الله عز وجل في دعاء واجف نـابع من الأعمـاق ، مقـرون بالـذل والضـراعة تسـأله فيه كل حاجاتك ، و تسـتدفعه كل مخاوفك ، وتسـتغفره من سـيئات أعمالك ،فلا خـير في صـلاة بـتراء لا يختمها العبد بـذل الاسـتجداء من مولاه.
إذا استشعرت سـخط النـاس عليك ، فاجهد أن يكـون لك من مرضـاة الله عنك خـير عـزاء يشـغلك عن الالتفات إلى سخطهم ، ولتعلم أن ذلك خير لك من أن يرضى الناس عنك بسخط الله .
إذا نازعتك نفسك الحـوض في غيبة أخ مسـلم لك ، فـاذكر أن فيك من العيـوب ما لو كشف الله سـتره عنك لجعل منك ومنها حديث الناس في مجالسهم و أسمار هم . فإذا ذكرت ذلك ، فسيحملك الحياء من الله ـ إن كانت لديك منه بقية ـ على التحول عن الحوض المحرم في إعراض الناس ، والاشـتغال بشـكر الله على ما مد من رواق ستره عليك .
إجهد أن تجعل رأس مالك الذي تقد مه غداً بين يدي الله ، قلباً نقيـاً طـاهراً من درن الحقد والأضـغان . فقليل من الطاعات قد يكفي مع قلب طـاهر سـليم . ولكن كثـيراً من الطاعـات لا يغـني مع قلب حاقد سليم.
إذا راودتك نفسك على اقـتراف شـيء من المحرمـات أو جاذبتك عن تنفيذ شـيء من بنـود هـذا العهد ، فاذكر (إذا كنت مؤمناً بالله) ضـجعة المـوت ، فأنه ما ذكر في كثـير من المعاصي إلا قللها ، وما ذكر في قليل من الطاعات إلا كثرها .
وادع الله لأخيك أن يوفقه للثبات على هذا العهد ، ولك مني مثل ذلك . والحمد الله رب العالمين .

---

[20]20 **كان من دعائه صلى الله عليه وسلم عندما يأوي الى فراشه: "الحمد لله الذي اطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا، فكم ممن لا كافي ولا مؤوي".**